من أعلام المحدثين

مالك بن أنس رضى الله عنه

د / جمال حسوب بهلول

مدرس الحديث وعلومه في الكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1] . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[2] . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[3][4] .

وأما بعد .....

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وأحسن الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة[5] ، وكل ضلالة فى النار[6] . " من يرد الله به خيراً يفقه فى الدين "[7] .

---

(١) سورة آل عمران آية " ١٠٢ " .

(٢) سورة النساء آية " ١ " .

(٣) سورة الأحزاب آية " ٧٠ ، ٧١ " .

(٤) تسمى هذه خطبة الحاجة أخرج بعضها الإمام يسلم فى صحيحه كتاب الجمعة جـ٦ / ١٥٦ من حديث ابن عباس رضى الله عنهما – بشرح النووى – ط دار الريان للتراث ، وأبو داود فى سننه كتاب النكاح باب فى خطبة النكاح جـ٢ / ٥٩١ وسكت عنه – طبعة مكتبة الحنفاء والترمذى فى سننه كتاب النكاح باب ما جاء فى خطبة النكاح جـ٣/٤٠٤ ، من حديث ابن مسعود ، طبعة دار الحديث ، وقال أبو عيسى : حديث عبد الله حديث حسن ، وأخرجه النسائى فى سننه كتاب الجمعة باب كيف الخطبة ٣/١٠٤ – ١٠٥ ، من حديث عبد الله مسعود ، طبعة دار الفكر العربى .

(٥) الحديث أخرجه مسلم فى كتاب الجمعة باب خطبته ﷺ فى الجمعة جـ٦/١٥٣ – من حديث جابر بن عبد الله – رضى الله عنهما ، طبعة – بيروت ، وأخرجه الدارمى فى المقدمة باب فى كراهية أخذ الرأى جـ١/٨٠ ، من حديث جابر بن عبد الله ، طبعة دار الريان للتراث بالقاهرة .

(٦) هذه اللفظة انفرد بها النسائى فى سننه كتاب اليدين باب كيف الخطبة جـ٣/١٨٨ ، من حديث جابر عبد الله .

(٧) أخرجه البخارى فى كتاب العلم باب من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين جـ١/١٦٤ ، من حديث معاوية ، وفى كتاب الجهاد باب قول الله تعالى : { فإن لله خمسة وللرسول } جـ٦/٢١٧ ، من حديث معاوية بن أبى سفيان "فتح البارى طبعة دار الفرك " ، وفى كتاب الاعتصام باب قول النبى ﷺ لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على =

اللهم فقهنا فى الدين وعلمنا التأويل يا رب العالمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا وأنا نسألك أن تعلمنا فذكر به وقت الحاجة يا رب العالمين .

إن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع الإسلامى والسنة المطهرة هى المصدر الثانى ، وهذان الأصلان الكريمان هما بمثابة الحلقة الواحدة المترابطة إذ كب منهما لا نفك عن الآخر ولا يستغنى عنه فكلاهما تشريع من عند الله عز وجل .

فالسنة جاءت توافق الكتاب العزيز فمنزلتها من الكتاب الكريم منزلة إيضاح وبيان تتعرض للتفصيلات والجزيئات تخصص عامة ، وتفيد مطلقه ، وتفصل مجمله ، وتبين مبهمه ، وشرح أحكامه سواء كانت مستقلة بالحكم أو مؤكدة له .

وكما تكفل الله عز وجل بحفظه القرآن تكفل سبحانه بحفظ البيان للقرآن فهيأ سبحانه للسنة أو عينها وأوجد لها حفظتها ونقلتها وضمن لها امتدادها واستمرارها من خلال مبلغيها ، ولقد كانت السنة وما تزال بحراً يتلاطم أمواجاً ومع كثرة الداخلين فيه أفواجاً ، والسالكين إليه سبلاً فجاجاً ، بقيت أبحاثها كأنها لجدتها وغزارة مادتها بكراً لم تمس فقمة الشرف فى دراستها ، وأوجه الفضل منها تلتمس فأى شرف بعد أن تعايش صاحب الوحى سيدنا محمد ﷺ وأى فضل وراء مدارسة أقواله وأفعاله وصفاته وتقريراته ، وإشاراته وأخباره واقتفاء آثاره أخلف بكل من انتسب للحديث أن يتفاخر لسنته وجدير بكل من يدارسه أن يباهى بدراسته ، فالسنة النبوية لم يشارك القرآن الكريم سواها فى الاحتجاج بها ووجدت العمل بمقتضاها لكونها الأصل الثانى من أصول التشريع فهى لا تقل أهمية عن ا لقرآن الكريم قال عز وجل ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2] .

ففى هاتين الآيتين يخاطب المولى عز وجل رسوله وحبيبه بأن له مهمة مع مهمة التبليغ ألا وهى بيان الذكر المنزل من عند الله عز وجل والبيان الإيضاح إذا فهى المحجة البيضاء التى تركنا عليها رسول الله ﷺ ليلها كنارها فلا يزيغ عنها إلا هالك .

= الحق وهم أهل العلم جـ١٢/٢٩٣ ، من حديث معاوية بن أبي سفيان " فتح البارى " ، وأخرجه مسلم فى كتاب الإمارة باب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق جـ١٣١٧ ، من حديث معاوية بن أبى سفيان " شرح النووى " ، وأخرجه الترمذى فى سننه كتاب العلم باب إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه فى الدين جـ٥/٢٨ ، من حديث ابن عباس – رضى الله عنهما – قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه أحمد فى مسنده ٣/٢٣٤ ، من حديث أبي هريرة ٤/٩٣ ، من حديث معاوية بن أبي سفيان.

(١) سورة النحل الآية : ٤٤ .

(٢) سورة النحل الآية : ٦٤ .

وقال مكحول القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن[1] ، وقال الشافعى : جميع ما تقوله الأئمة شرع للسنة وجميع السنة شرع القرآن[2] ، وقال أبو حنيفة : " لو لا السنة ما فهم أحد منا القرآن "[3] .

وقد أمرنا الله عز وجل بالإقتداء بصاحب السنة ﷺ فى الأمر والنهى حيث إنه الموكل إليه بيان القرآن الكريم فيقول عز وجل ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[4] .

من أجل هذا حمل الصحابة – رضوان الله عليهم – السنة المطهرة حفظوها فى صدورهم ووعوها بقلوبهم ، وتفرقوا فى الأمصار يبلغونها للناس وبذلوا كل جهد مستطاع فى سبيله وبذلوا النفس والنفيس للذب عن حريم الإسلام وذادوا عن عقيدته رغبة فى رضا الله ورسوله ووثوقا بما عند الله ويقينا بوعده الذى وعد عباده المتقين قال أبو السعود – رحمه الله – : يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة ولمن وافق دينهم الرحمة والرأفة .

فخلف من بعدهم التابعون الذين اقتدوا بهم وساروا على نهجهم ودربهم فرفعوا منار الهداية – وحملوا راية السنة وأعلو شأن الرواية وأحاطوا أحاديث نبيهم ﷺ لسياج من الصيانة والرعاية فنفوا عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين .

ثم خلفهم تابعوا التابعين ، وهم خلف الأخبار وأعلام الأمصار فى دين الله عز وجل ، الذين عرفوا السنة قدرها وتفانوا فى حفظها فأودعوها الصدور والطور وحرصوا على الذب عنها : وابتعاد الدخيل عن ساحتها – ونقدوا روايتها وكشفوا من مكنون جواهرها – فجمعوا بذلك المؤلفات الكثيرة فى الحديث وغيره من المؤلفات التى يفخر بها التاريخ على مر السنين والأزمان .

ولقد امتدت تلك السيرة المباركة فى الأجيال المتعاقبة لحمل راية الإسلام والذب عن سنة سيدنا محمد ﷺ والدفاع عنها تأليفاً وتصنيفاً وشرحاً وتنقيباً ، وممن كان لهم نصيب فى الدفاع عن السنة والذب عنها ودعوة الناس إليها .

---

(١) دفاع عن السنة ص ١٣ .

(٢) قواعد التحديث للقاسمى ص ٥٩ .

(٣) قواعد التحديث للقاسمى ص ٥٢ .

(٤) سورة الحشر آية : ٧ .

الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه

فالناس منذ أقدم العصور فى نهضة إلى تتبع تاريخ عظمائهم ، ومن كان له أثر قوى فى حياتهم ولا سيما هؤلاء الذين كان لهم الشأن فى القصائد الدينية التى هى أقوم النواحى التى يعيش عليها المجتمع الإنسانى منذ وجد الإنسان .

وقد ضرب المسلون بسهم وافر فى ترجمة حياة أعلام الإسلام بحيث قل أن نجد فى تاريخ أمة من الأمم هذه الثروة الطائلة التى تركها المسلون فى فن السير والتراجم والطبقات والمناقب وغيرها ، وربما كان الإمام مالك من أكبر الشخصيات التى تحدث عنها الكتاب منذ عرف فقه الإمام مالك رضى الله عنه ، ومنذ روى كتابه الموطأ من أكبر الكتب التى عنى بها الناس رواية وشرحاً وتعليقاً ، ومع ذلك كله فلا تزال الكتابة عن مالك ، وعن أحاديثه قاصرة فنحن فى حاجة إلى بحث أو أبحاث تتحدث عن حياة الإمام مالك من حيث أسرته ومكانتها فى الجاهلية والإسلام عن حياة مالك علاقته بالمجتمع الذى كان يعيش فيه من الناحية السياسية والمذهبية والاقتصادية عن شيوخ مالك وأثرهم فى أرائه عن تلاميذه وانتشار مذهبه لبيان ما تنيره تلك الدارسة لسير العلماء والعظماء من الناس بهم فى الصبر والجلد وقوة الاحتمال والإخلاص ، وغير ذلك من مزايا تفيد أفراد المجتمع وتضع بين أيديهم المثل الكاملة للرجولة الناضجة لصرح علمى أمين متين .

فسوف أتناول إن شاء الله من خلال هذا البحث المتواضع عن دراسة الإمام مالك رحمه الله تعالى . من حيث تتبع حياته ناشئاً فى مدارج الحياة وشابا يستوى للعلم وكهلا قد تبدت مواهبه واستقامت مناهجه ، وشيخا يفيض بنور المعرفة الأرض وأدناها وتزخر مجالية بطلبة العلم الذين جاءوا إليه من كل فج عميق لدارسة الحديث وعلومه خاصة وسائر العلوم عامة من خلال جهد الإمام مالك رحمه الله وأنى لأرجو أن يستفيد القارئ ويجد فيما اكتبه عن هذا الإمام الجليل المحدث الفقيه ما يفيد ، ويجدى وقد قصدت الخير وأردت النفع .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنبت وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين

د/ جمال حسوب هلول

الحالة السياسية

فى حياة الإمام مالك شاهد العالم الإسلامى تطورات خطيرة كان لها أثرها القوى فى الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية ، ففى هذه السنوات نشطت دعوة العباسيين وتطورت هذه الدعوة إلى انقلاب الحكومة ، فسقطت دولة بنى أمية ، وتولى العباسيون الأمر ، وتتبعوا الأمويين ، ومن لاذ بهم قتلاً وتعذيباً وسقوط دولة وقيام أخرى يؤدى دائماً إلى لون من الاضطراب بين الناس ، يوجد فيهم شيئاً من عدم الطمأنينة ، ومن تبلبل الأفكار فمنهم من يتخذ التقية فيضمر غير ما يظهر ، ومنهم من يسلم للأمر الواقع ولا يأبه بمجرى الحوادث حوله ، ومنهم من يقوم مع الحكومة الجديدة ابتغاء التقرب والزلفى لدى أولى الأمر ، ومنهم من يؤازر الحركات التى ترمى إلى دعوة الحكومة القديمة ، هذا ما نراه فى التاريخ فى كل العصور ، وفى كل انقلاب يحدث ، وهذا ما حدث فى التاريخ الإسلامى عند انتقال الحكم إلى العباسيين لم يخشوا أمر الأمويين خشيتهم من حزب العلويين ، وكان الحجاز عامة والمدينة خاصة وكر الدعوة العلوية ، وفيها كان الإمام جعفر الصادق إمام الشيعة على اختلاف فرقها التى عرفت بعد وفاة الصادق سنة ١٤٨هـ من إسماعيلية ومباركية وأثنى عشرية وغيرها – وفيها خرج محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية ، وخرج معه عدد من علماء المدينة منهم ابن هرمز أحد شيوخ مالك . أما مالك نفسه فكان مضطراً إلى أن لا يسهم فى هذه الثورة مساهمة إيجابية ، ذلك أن المنصور العباسى أرسله مع من أرسل إلى بنى الحسن ليدفعوا محمداً وإبراهيم ابنى عبد الله[1] ، فلما قام محمد وإبراهيم بالثورة لم يسع مالك أن يشترك فيها ، وهو الذى كان رسولاً لتسلمها بالأمس ، وفى الوقت نفسه كان ينقم على المنصور جبروته وطغيانه ، ولهذا كان يأتيه أهل المدينة يستفتونه فى الخروج مع محمد ويقولون إن فى أعناقهم بيعة لأبى جعفر فيقول : إنما يا يعتم مكرهين وليس على مستكره يمين[2] ، وهذه التيارات السياسية اضطرب الإمام مالك إلى أن يتحفظ ، ولهذا وصف مالك بأنه كان أعظم الخلق مروءة وأكثرهم صمتاً قليل الكلام متحفظاً بلسانه من أشد الناس مداراة للناس[3] .

وعرف العباسيون مكانة الإمام حتى أن العلاقة بين مالك والعباسيين لم تلبث أن وطدت ، إذ تقرب إليه العباسيون ليتخذوا منه ، ومن أمثاله من العلماء سنداً وعوناً فى توطيد حكمهم فزاره بعض الخلفاء العباسيين ، وروى المهدى العباسى عنه الموطأ والروايات كثيرة حول مقابلات مالك وخلفاء العباسيين ، وكلها تثبت أن العباسيين عرفوا قدر هذا العالم الكبير ، وأنهم أجزلوا له العطاء ، ومنحوه سلطة تقرب من سلطة حاكم المدينة ، فكان يأمر بحبس من يشاء أو يضرب من يريد ، وبالرغم من ذلك فلم يكن الإمام مالك من مؤيدى العباسيين فقد كان يرى أن الحكم هو

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ٥/١٤ .

(٢) تاريخ الطبرى جـ٩/٢٠٦ .

(٣) الديباج ص ٢٠ .

حكم عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما ، وكان يرجو أن يتاح للمسلمين من يحكم بحكمها .

الفرق الطوائف

كان المسلون فى جميع الأمصار قد نشطوا فى الدارسات الدينية نشاطاً ملحوظاً فدرسوا القرآن الكريم من نواحيه المتعددة ، تفسيره وقراءاته ومفرداته ونحو إلى غير ذلك من ألوان الدراسات التى هى محور الثقافة الإسلامية فى كل العصور الإسلامية وبجانب هذه الدراسات وجدت دراسة أخرى قوامها رواية حديث الرسول ﷺ وتتبع أثاره وسننه ، فقد خرج كثير من الصحابة والسابقين الأولين إلى الجهاد فى سبيل الله .

واجتمع إليهم الناس فكانوا فى كل جند طائفة منهم يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، وإذا استفتوا فى أمر لم يفسره لهم القرآن الكريم والسنة النبوية اجتهدوا فيه برأيهم ، وكثيراً ما كان يستشار الخلفاء والراشدون فى مثل هذه الفتاوى ، فكان الخلفاء يرسلون إلى الأمصار برأيهم بعد استشارة من حضر حولهم من الصحابة والسابقين ، ومع ذلك لم يسلم الأمر من اختلاف فتاوى الصحابة[1] ، ثم اختلف التابعون وتابعوهم ، وفى ذلك يقول الليث ابن سعد لمالك ، ثم اختلف الذين كانوا بعدهم (أى من السابقين والتابعين) فحضرتهم بالمدينة وغيرها وعلى رأسهم ابن شهاب وربيعة بن أبى عبد الرحمن ، وكان من خلاف ربيعة لبعض ما قد مضى ما قد عرفت وحضرت سمعت قولك فيه ، وقول ذى الرأى من أهل المدينة يحيى بن سعيد وعبيد الله بن عمر ، وكثير بن فرقد وغيره كثير ممن هو أسن منه ، حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه وذاكرتك أنت ، وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك فكنتما من الموافقين فيما أنكرت تكرهان منه ما أكره[2] .

وهذا الخلاف الذى ذكره الليث بن سعد لم يكن بين فقهاء المدينة فحسب بل نراه فى جميع الأمصار التى استجابت لدعوة الإسلام ، فكان مصدر ثروة عقلية لا تكاد نجد لها مثيلاً فى تاريخ الحضارات والأديان لأنها خلفت تراثاً عاش عليه المسلون بل لا يزلون يعيشون عليه إلى الآن ، على أن هذه الدراسات الدينية الخاصة قد وجدت فى عهد الإمام مالك تطوراً جديداً بدخول بعض العناصر الأجنبية عن العرب ، العرب الإسلام بفضل اعتناق كثير من الأعاجم الدين الإسلامى ، وهؤلاء كان لهم آراؤهم وتقاليدهم الدينية قبل الإسلام ، ثم بفضل حركة الترجمة التى بدأت فى عصر الأمويين ، وأتت أكلها فى عصر العباسيين فكثرت الأهواء والبدع وكثرت الفرق وكثر بينها الجدل فنجد فرقة الشيعة والخوارج والقدرية والمرجئة والرقبة والمعتزلة ، كما ظهرت فى عهد المنصور فرقة الخراسانية والروانديه والزنادقة وغيرها من فرق الغلاة على أن بلاد الحجاز لم

(١) أعلام الموقعين لابن القيم جـ٣/٨٤ .

(٢) نفس المصدر .

تتأثر كبيراً واستطاعت المدينة أن تحافظ على تقاليدها التى ورثتها منذ عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، فلم تكن تميل إلى الجدال فى الدين بل كانت إلى الحفظ والنقل اقرب ، ولهذا كان الناس يفضلون الأخذ برأى أهل المدينة .

وقد أخذ مالك نفسه بتمييز المدينة ووافقه الليث بن سعد وتلاميذ المدرسة المالكية ، وها هو ابن عبد الحكم رئيس المدرسة المالكية بمصر يقول : إذا جاوز الحديث الحرتين ضعفت شدته[1] وكان مالك بن أنس يتجنب أصحاب الفرق وأصحاب الأهواء فى آرائهم .

قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سناً الأخذ بها إتباع لكتاب الله تعالى واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله ليس لأحد بعد هؤلاء تبديلها ولا النظر فى شئ من خالفها فمن اهتدى بها فهو مهتد ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى واصلاه جهنم وساءت مصيراً[2] ، على هذا النحو كان ينظر مالك إلى أصحاب الفرق المختلفة ، فالدين عنده هو الأخذ بكتاب الله الكريم وسنة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وما قال به الخلفاء الراشدون وما رواه الصحابة وأهل الصحابة وأهل الورع والتقى من علماء المدينة ، وهذا هو المنهج الذى رسمه مالك لنفسه ، والذى يقوم عليه كتاب الموطأ ، ونحن نرى هذا المنهج واضحاً كل الوضوح فى الكتاب وأيده ما قاله ابن أبى أنيس احد تلاميذ مالك فهو يقول : قيل لمالك قولك فى الكتاب الأمر المجتمع عليه ، والأمر عندنا وببلدنا وأدركه أهل العلم ، وسمعت بعض أهل العلم ، فقال : أما أكثر ما فى الكتاب فرأيى ، فلعمرى ما هو رأيى ولكنه سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل والأئمة المهتدى بهم الذين أخذت عنهم ، وهم الذين أدركوهم عليه وأدركتهم أنا على ذلك .

فهذا وراثة توارثوها قرنا عن قرن إلى زماننا ، وما كان رأيا فهو رأى جماعة ممن تقدم من الأئمة ، وما كان فيه الأمر المجتمع عليه فهو ما احتج عليه من قول أهل الفقة والعلم لم يختلفوا فيه .

وما قلت الأمر عندنا فهو ما عمل به الناس عندنا وجرت به الأحكام وعرفه الجاهل والعالم ، وكذلك ما قلت فيه ببلدنا ،وما قلت فيه بعض أهل العالم فهو شئ استحسنته من قول العلماء ، وأما ما لم اسمع منهم فاجتهدت ونظرت على مذهب من لقيته حتى وقع ذلك موقع الحق أو قريباً منه حتى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم ..... وإن لم اسمع ذلك بعينه فنسبت الرأى إلى بعد الاجتهاد مع السنة وما مضى عليه عمل أهل العلم المقتدى بهم ، والأمر المعمول به عندنا من لدن رسول الله ﷺ والأئمة الراشدين مع من لقيت فذلك رأيهم ما خرجت على غيره[3] .

---

(١) مناقب مالك للزواوى ص ٥٢ .

(٢) الديباج ص ٦٤ .

(٣) الديباج ص ٢٥ .

فهذا المنهج الذى رضيه مالك لنفسه يدلنا على انه كان ينقل العلم رواية شأنه فى ذلك شأن كل العلماء فى رواية الحديث النبوى الشريف وآراء من أخذ عنهم من المجتهدين ، وما رضى به علماء أهل المدينة لأنفسهم مما أخذوه عن السلف الصالح ، وهو مقيد نفسه بذلك كله لا يحيد عنه ويتحرج من المجادلة فيه ولكنه مع ذلك كله مجتهد فى اختيار الحديث ناقد مدقق احتاط أشد الاحتياط فى روايته حتى قال الشافعى : كان مالك إذا شك فى الحديث طرحه كله[1] ، وقال ابن أويس : سمعت مالكاً يقول : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه ، لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين – وأشار على المسجد – فما أخذت عنهم شيئاً ، إن أحدهم لو أؤتمن على بيت مال لكان أميناً إلا إنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن[2] ، وبلغ به تحرجه واجتهاده معا فى التدقيق فى المسائل التى يسأل عنها .

فقد روى ابن القاسم : سمعت مالكاً يقول : إنى لأفكر فى مسألة منذ بضع عشر سنة ما اتفق لى فيها رأى إلى الآن ، وكان يقول : ربما وردت على المسألة فاسهر فيها عامة ليلتى[3] ، فهذا كله يدل على أن مالكاً كان يفكر ، ويطيل التفكير وينظر فى المسائل ويمعن فيها النظر يخاف الله ويخشاه فيما يسأل عنه لأنه يتحدث فى أمر دين الله فقد رأيناه يقول : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه ، فلا غرو أن رأينا القدماء أنفسهم يثقون برواية مالك للحديث ثقة تامة ووصفوا مالكاً بصفات الرواية الكامل ، وقدموه على شيوخه أنفسهم .

ويروى ابن عبد الحكم أن مالكاً كان يفتى مع يحيى بن سعيد وربيعة ونافع وكانت له حلقة فى حياة نافع أكبر من حلقة نافع[4] ، فهذا اعتراف من معاصريه أنفسهم بتفضيله على نافع مع مكانة نافع وعلو كعبه وفضله حتى لقب بفقيه المدينة .

وربما كان تفضيل معاصريه له وتسابقهم للأخذ عنه سبباً فى أن يقول عليه بعض العلماء أمثال : ابن إسحاق ، وابن أبى ذؤيب وغيرهما حسدا له على ما بلغه من مكانة فى نفوس معاصريه .

وربما حقدوا عليه لأن مالكاً يخالفهم ويطعن عليهم ، ومع ذلك فإن هؤلاء العلماء الذين نقدوا مالكاً لم يستطع أحدهم أن ينقد رواية من رواياته للحديث الشريف ، إنما كان أكثر النقد يدور حول أمور فقهية كان يراها مالك ، ولم يأخذوا هم بهما ، أو نقدت بعض تصرفات مالك الخاصة مثل تخلفه عن الصلاة الجامعة ، وعدم شهود الجنائز وعبادة المريض مع أنه كان يزور الأمراء ، وذلك كله حدث فى أواخر أيام حياته حين حلت به الشيخوخة فهذه المسائل التى

(١) الديباج ص ٢٤ .
(٢) الديباج ص ٢١ .
(٣) الديباج ص ٢٣ .
(٤) الديباج ص ٢١ .

وجهت إلى الإمام لا تنقص من قيمته العلمية ولا من صحة روايته ، وهى أقرب ما يكون من نقد المتنافسين بعضهم على بعض[1] .

مولد مالك ونسبه :

ولد الإمام – رحمه الله – سنة ثلاث وتسعين من الهجرة على أصح الأقوال . هو الإمام أبو عبد الله مالك بن انس بن مالك بن أبي عامر ابن عمرو بن الحارث ، وهو – أى الحارث – ذو أصبح ، والذى ينسب إليه مالك فيقال له : الأصبحى ، والأصبحيون كانوا من عظماء اليمن ، فنسبه من جهة أبيه يصل إلى (ملوك حمير) ، فى الجاهلين ، وينتهى نسبه إلى : يعرب بين يشجب بن قطان فهو ينتمى – أيضاً – إلى القحطانية باليمن المقابلة للعدنانية فى الحجاز التى ينتهى إليها نسب سيدنا محمد ﷺ .

جد الإمام مالك أبو عامر صحابى جليل شهد المغازى كلها مع رسول الله ﷺ ما عدا بدراً ، وابن أبى عامر المسمى مالكاً – وهو الجد الأول للإمام مالك من كبار التابعين وعلمائهم ، وهو أحد الأربعة الذين حملوا عثمان – رضى الله عنه – بعد مقتله إلى قبره ودفنوه ليلا أما والد الإمام فكان مقعداً يحترف صنعة النبل ، ولا يذكر بشئ من العلم .

ويقول العالم محمد فؤاد عبد الباقى عن أم الإمام مالك لا تعرف شيئاً نطمئن إليه عن أم الإمام لكثرة اختلافات القدماء عنها وعن اسمها[2] .

نشأة الإمام مالك :

كان مولد الإمام مالك بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، وهى مهبط الوحى ودار الهجرة ومعدن الرسالة وفيها ظهر الحق وانتصر وقام الدين واشتهر ومنها فتحت البلاد وتواصلت الأجداد ، وبها مثوى رسول الله ﷺ ومعه صاحباه أبو بكر وعمر – رضى الله عنهما – ، وفيها مسجده المؤسس على التقوى من أول يوم ، وفيها قبور أكثر الصحابة والأخيار من عشيرته وأشياعه الشهداء من المهاجرين الأولين وأنصار الدين الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم .

وفى المدينة كان الحق ناصعاً والدين خالصاً وعلى أثقابها ملائكة تحرسها حتى لا يدخلها الطاعون ولا الدجال ، ولا يصبر على شدة حرها أحد إلا كان رسول الله ﷺ له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة ، وقال عنها النبى ﷺ : " لا يخرج أحد منها رغبة عنها إلا أبدلها خيراً منه "[3] .

وفيها فقهاء المدينة السبعة المشهورون : سعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ، وعروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة

---

(١) مقدمة الموطأ ص ٣١ .

(٢) مقدمة الموطأ للشيخ محمد فؤاد عبد الباقى ص ٢٣ .

(٣) أخرجه مالك فى الموطأ كتاب الحلج باب الدعاء للمدينة وأهلها (حديث ٦) ٦٧٦/١ .

بن مسعود ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، ولم يزل الدين بها قائماً والسنة معلومة والعلماء متوافرون إلى أن انبت الله فيهم فى أقرب عصر قبل تمام المائة من الهجرة النبوية (مالك بن انس بن أبى عامر الأصبحى المدنى) الذى نشأ بينهم غلاماً عاقلاً حافظاً ثبتاً ضابطاً متقناً براً تقياً فتعلم منهم وجمع علومهم وحفظ آرائهم ونقل آثارهم ، وعرف مذاهبهم وأحكم قواعدهم ، وأخذ العلم عن نحو مائة شيخ انتقاهم وارتضاهم فتبين فضله ، واشتهر علمه ونبل قدره وعظمت منزلته فاقروا بفضله وإذ عنوا لعلمه فساد جميع أقرانه وسمى عالم المدينة وإمام دار الهجرة وأشتهر خبره فى الأمصار ، وارتحل الناس إليه من كل مصر وأتوه من كل قطر ومنح الله المسلمين بطول حياته فقد عاش قريباً من تسعين سنة ، ومكث يفتى الناس أكثر من ستين سنة وشهد له التابعون بالفقه والحديث واحتاج إليه معلموه وسألوه عن دينهم .

فنشأ مالك وللمدينة تلك المكانة فوجد تلك التركة المثرية من العلم والحديث والفتاوى ، فنمت مواهبه تحت ظلها حفظ القرآن فى صدر حياته كما هو الشأن فى أبناء أكثر الأسر الإسلامية التى تربى أبناؤها تربية دينية ولابد أن تكون الأسرة كذلك فى مدينة رسول الله ﷺ والعهد قريب إذا كان من القرون الأولى التى تعد خير القرون كما ذكر الرسول ﷺ .

وقد اتجه بعد حفظ القرآن الكريم على حفظ الحديث فوجد من بيئته محرضاً ، ومن المدينة موعداً ومشجعاً ولذلك اقترح عليه أهله أن يذهب إلى مجال العلماء ليكتب العلم ويدرسه ، وكان حريصاً منذ صباه على حفظ ما يكتب حتى إنه بعد سماع الدرس وكتابته يتتبع ظلال الأشجار يستفيد ما تلقى ، ولقد رأته أخته كذلك فذكرته لأبيها ، فقال لها : يا بنية إنه يحفظ أحاديث رسول الله ﷺ

شيوخه وتلاميذه :

تلقى الإمام مالك – رحمه الله تعالى – علومه على جمهرة من أكابر علماء عصره ، ومن جلة شيوخه ، وسوف أكتفى بترجمة لأشهر هؤلاء الشيوخ الذين علت شهرتهم وذاع صيتهم .

١ – ابن هرمز : وهو أبو بكر عبد الله بن ثريد المتوفى سنة ثمان وأربعين ومائة هجرية انقطع إليه مالك سبع سنين لم يخلطه بغيره .

ويقول فى سبب ذلك :كان لى أخ فى سن ابن شهاب الزهرى فألقى أبى يوماً علينا مسألة فأصاب أخى وأخطأت فقال أبى : ألهاك اللعب بالحمام عن طلب العلم فغضبت وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين لم أخلط بغيره[1] .

وقال ابن هرمز يوماً لجاريته : من بالباب ؟ فلم تر غير مالكاً فرجعت فقالت وما ثم إلا ذاك الأشقر فقال : ادعيه فذلك عالم الناس .

(١) الديباج ص ١٧ – ٢٠ .

وقد تأثر مالك كل التأثر بما تلقاه عن ابن هرمز فهو من الشيوخ الذين وجهوا ميوله وجهتها ، وقد كان مالك يتخذه من بين العلماء أسوة صالحة .

لقد كانت المدينة مهد العلم حقاً ، وعاصر مالك فيها من التابعين عدداً طيباً كان له المعين الذى لا ينضب ، والمنهل العذب المورد ، ثم إلى ينابيع أخرى مع نبعه الأول ألا وهو .

٢ – نافع الفقيه المحدث مولى ابن عمر أبو عبد الله المدنى[١] ، تتلمذ على أكابر الصحابة بعد مولاه ابن عمر وأبى هريرة وعائشة وأم سلمة فأخذ عنه مالك مع أكابر التابعين وعلمائهم كعبد الله بن دينار والزهرى ويحيى بن سعيد وصالح بن كيسان وأيوب السختيانى وميمون بن مهران والحسن البصرى وسعيد بن المسيب وخلق كثير .

وقال البخارى أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر ، وقال الإمام مالك : كنت إذا سمعت من نافع يحدث عن ابن عمر لا بالى أن لا أسمعه من غيره .

وقال النسائى : أثبت أصحاب نافع مالك ثم أيوب ، وقال الخليلى : نافع من أئمة التابعين بالمدينة إمام فى العلم متفق عليه صحيح الرواية ولا يعرف له خطأ فى جميع ما رواه[٢] .

وأخذ مالك عن نافع علما غزيرا وعرفت روايته عنه مالك عن نافع عن ابن عمر : (سلسلة الذهب) وهى السلسلة رفيعة المقام والقدر فى علوم الحديث ، وروى مالك عن نافع ثمانين حديثاً فى الموطأ .

٢ – ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة (١٢٤هـ) كما أكثر مالك من الأخذ عن ابن شهاب عن نافع فى حفظه للحديث والحرص عليه مع جودة فهم وحسن ضبط ، يقول الإمام مالك فى ذلك : قدم علينا الزهرى فأتيناه ومعنا (ربيعة الرأى بن أبى عبد الرحمن)[٣] فحدثنا نيفا وأربعين حديثاً ثم أتيناه من الغد فقال أنظروا كتبا حتى أحدثكم ، أرأيتم ما حدثتكم به أمس ؟ فقال له ربيعة : ههنا من يرد عليك ما حدثت به أمس . قال : ومن هو ؟ قال : مالك . قال هات : فحدثته بأربعين حديثاً منهما .

فقال الزهرى : ما كنت أرى أنه بقى أحد يحفظ هذا غيرى وكان مالك حريصاً على الانتفاع برواية الزهرى انتفاعه بعلم ابن هرمز . وكان فى طلبه العلم – على أيدى هؤلاء – يستخف بكل صعب فيذهب إلى بيت أشياخه فى شدة الحر يترقب خروجهم بعد القيلولة ويذهب إليهم حيث يتوقع فراغهم ليتلقى العلم فى جو هادئ ، وقد قال له الزهرى أنت من أوعية العلم . وذكر مالك أنه كان لشدة حرصه على حفظ حديث ابن شهاب يجلس ومعه خيط فإذا حدث عن الرسول ﷺ عقد عقدة حتى يعرف من عدد العقد عدد الأحاديث ومقدار ما علق بذاكرته منها

---

(١) تهذيب التهذيب ٤٧٣/٨ – ٤٧٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) توفى سنة ١٣٦هـ راجع ابن ملكان جـ١ / ١٨٣ .

وقد روى مالك فى الموطأ عن ابن شهاب مائة واثنين وثلاثين حديثاً منها اثنان وتسعون متصلة الأسانيد[1] والباقى إما مرسل[2] وإما منقطع[3] .

يقول الليث بن سعد فى خطاب له إلى مالك " ثم اختلف الذين كانوا بعدهم فحضرهم بالمدينة وغيرها ورأسهم يومئذ ابن شهاب وربيعة بن أبي عبد الرحمن وهو أحد شيوخ مالك وهو الذى قال فيه مالك : ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة .

التزم مالك منذ صباه الاحترام التام لأحاديث رسول الله ﷺ فكان لا يتلقاها إلا جالساً على خير حال من الاستقرار والهدوء توفيراً لها وحرصا على ضبطها فما كان يتلقاها واقفا ولا فى حال ضيق أو اضطراب حتى لا يفوته شيئ منها . سئل رضى الله عنه : هل سمعت من عمرو بن دينار ؟

فقال : رأيته يحدث والناس قيام يكتبون فكرهت أن أكتب حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأنا قائم ومر مالك بأبى الزناد وهو يحدث فلم يجلس إليه فلقيه بعد ذلك فقال له : ما منعك أن تجلس إلى ؟ قال : كان الموضع ضيقا فلم أرد أن أحدث حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم .

هؤلاء هم أشهر العلماء الذين تتلمذ عليهم الإمام مالك مع أنه لاقى كثيرين ممن وفدوا على الحجاز للحج وروى عنهم فلم يذكر عن مالك أنه رحل فى طلب العلم مع أن الرحلة فى ذلك الوقت كانت من أهم مقومات العالم ولاسيما للمحدث وربما كان ذلك لأن الإمام كان يعتقد كما اعتقد غيره من العلماء أن العلم هو علم المدينة وفى ذلك يقول الليث بن سعد : وإنى بحق على الخوف على نفسى لاعتماد من قبلى على ما أفتيتهم به ، وأن الناس تبع لأهل المدينة التى إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن وأما ما ذكرت من مقام رسول الله ﷺ بالمدينة ونزل القرآن بها عليه بين أصحابه وما علمهم الله منه ، وأن الناس صاروا تبعا لهم فيه فكما ذكرت "[1] ، فلهذا لم يأبه مالك بالرحلة العلمية ما دام العلم هو علم المدينة[4]

---

(١) المتصل ويسمى الموصول . وهو ما اتصل سنده ، سواء كان مرفوعاً إليه ﷺ أو موقوفاً . (قواعد التحديث للقاسمى ص ١٢٣) .

(٢) المرسل : ما سقط منه الصحابى كقول نافع : قال رسول الله ﷺ كذا ، أو فعل كذا ، أو فعل بحضرته كذا . فالإرسال رواية الرجل عمن لم يسمع منه (المصدر السابق ص ١٣٣) .

(٣) المنقطع : هو ما لم يتصل إسناده سواء سقط منه الصحابى أو غيره . وبعبارة أخرى : ترك ذكر الراوى من أول الإسناد أو وسطه أو آخره إلا أن الغالب فى استعماله فى رواية من دون التابعى عن الصحابى كمالك عن ابن عمر (المصدر السابق ص ١٣٠) .

(٤) أعلام الموقعين لابن القيم جـ٣ / ٨٣ .

(٥) مقدمة الموطأ للشيخ محمد فؤاد عبد الباقى ص ٢٦ .

ومن أشهر تلاميذه :

١ – الإمام الشافعي : محمد بن أدريس بن العباس بن عثمان بن شافع يمتد نسبه إلى بنى هاشم بن عبد المطلب[١] ، وهو أحد الأئمة الأعلام ظهر علمه وانتشر فى البلاد قال أبو الحسن المقاربى : سمعت المزنى يقول : سمعت الشافعى يقول : رأيت على بن أبى طالب فى النوم فسلم على وصافحنى وخلع خاتمه فجعله فى أصبعى ، وكان لى عم ففسرها لى : أما مصافحتك لعلى فأمات من العذاب ، وأما خلع خاتمه وجعله فى أصبعيك فسيبلغ أسمك ما بلغ اسم على وقال شيخ الإسلام فى كتابه التهذيب قال نص بن مكى : سمعت ابن الحكم يقول لما أن حملت أم الشافعى به رأت كأنى المشترى خرج من فرجها حتى انقض بمصر ، ثم رفع فى كل بلد منه شظية فتأول أصحاب الرؤيا أنه يخرج عالم يخص علمه أهل مصر ثم يتصرف فى سائر البلدات[٢] .

ومن تلاميذهِ أيضا :

٢ – يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس بن شملل بن منقايا المصمودى : نسبة إلى مصمودة قبيلة من البربر ، رحل إلى مالك وأخذ عنه الموطأ سماعا مرتين ورجع إلى وطنه عالماً فى الحديث وعلومه وطلب منه أمير قرطبة قبول قضاء قرطبة فامتنع وكان متورعاً زاهداً .

قال الإمام الزرقانى : كان يحيى عند مالك فقيل هذا لفيل فخرجوا لرؤيته ولم يخرج . فقال مالك له : لم لم تخرج لنظر الفيل ، وهو لا يكون ببلادك ؟ فقال : لم أرحل لانظر الفيل ، وإنما رحلت لأشاهدك وأتعلم من علمك وهديك فأعجبه ذلك وسماه عاقل الأندلسى[٣] ومما هو ضرورى عند المحدثين ، أن مشايخ أصحاب الكتب الستة ومن عاصرهم كالإمام عن حمد فى مسنده ، أغلبهم تلاميذه الإمام مالك فأخرج البخارى فى صحيحه كثير عن مالك كالأحاديث فى العقائد والسمعيات والأشراط وشبه ذلك .

٣ – ومن تلاميذه وأحد شيوخه ابن وهب وهو أبو محمد عبد الله بن مسلمة الفهرى المصرى ولد فى ذى القعدة سنة خمس وعشرين بعد المائة ، وأخذ عنه أربعمائة شيخ منهم مالك والليث بن سعد ومحمد بن عبد الرحمن . والسفيانان وغيرهم كان مقلدا للإمام مالك دون غيره وتعلم منه الاجتهاد والتفقه وكان كثيرُ الرواية للحديث وقد ذكر الذهبى أنه وجد فى تصانيفه مائة ألف حديث وعشرون ألفا كلها من رواياته ومع هذا لم يوجد فى أحاديثه منكر، فضلاً عن ساقط أو موضوع ومن تصانيفه الكتاب المشهور بجامع ابن وهب[٤] ، وكتاب المسالك . وكتاب المغازى – وكتاب تفسير الموطأ وكتاب القدر وغير ذلك .

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر ٧ / ٢٤ .

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر ٧ / ٢٥ .

(٣) مقدمة الموطأ ص ١١ ، ١٢ .

(٤) اسم الكتاب (الجامع فى الحديث) وقد عثر على معظم هذا الكتاب فى مدينة ادفو . ويعد من أقدم المخطوطات العربية فى جميع مكتبات العالم أن لم يكن أقدمها جميعاً وهذه النسخة مكتوبة على ورق البردى =

وقد كان صنف كتاب أهوال القيامة . فقرئ عليه يوماً فغلب عليه الخوف فغشى عليه : وتوفى فى تلك الحالة يوم الأحد خامس شعبان سنة تسع وتسعين بعد المائة .

فضل مالك على أقرانه :

قد أثر عنه أنه قال : " إن هذا العلم دين ما نظروا عمن تأخذون منه . لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله ﷺ عند أساطين المسجد النبوى فما أخذت عنهم شيئاً وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أميناً إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن[1] .

ومما يدل على فضل الإمام مالك الشيخ عيسى بن مسعود الزواوى فى كتابه (مناقب مالك) نقلاً عن كتاب أبى نعيم فى (حلية الأولياء) حيث قال : روى عن جعفر بن محمد الصادق أنه دخل عليه قوم من أهل الكوفة فى مرضه الذى مات فيه فسألوه أن ينصب لهم رجلا يرجعون إليه – فى دينهم – يعده إليه . فقال : عليكم بقول أهل المدينة فإنها تنفى خبثها كما ينفى الكير حبث الحديد عليكم بأثار من مضى فإنى أعلمكم أنى متبع ولست بمتدع ، عليكم بفقه أهل الحجاز عليكم بالميمون المبارك فى الإسلام المتبع أثار رسول الله ﷺ فقد امتحنته فوجدته فقيها فاضلاً متبعاً لا يميل به الهوى ولا تزور به الجامة ولا يروى إلا عن أهل الفضل ، فإن اتبعتموه أخذتم بخطكم من الإسلام وإن خالفتموه ضللتم وهلكتم ، ألستم تقولون إنى هيئ لى من العلم حتى صرت غير محتاج إلى أحد من الخلق ، فإنه قد أخذ عنى كل ما يحتاج إليه ، فلا يميل بكم الهوى فتهلكوا ، فقد أرشدتكم إلى رجل نصبته لكم فإنه أمين فى زمانه قالوا : من هو ؟ بينه لنا قال : ذلك مالك بن أنس عليكم يقول مالك[2] .

بشارة نبوية تتحقق فى الإمام مالك :

روى الإمام مالك فى الموطأ والترمذى وحسنه والنسائى والحاكم وصححه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة .

قال الترمذى فى جامعه : قال سفيان بن عيينه : كانوا يرون فى هذا أنه مالك بن أنس وذلك أنه عاش حتى لم يبق له نظير بالمدينة[3] وتأول الحديث أيضاً على مالك : عبد الملك بن جريج وعبد الرحمن بن مهدى ووسجيع ابن الجراح والأوزاعى قال ابن عبد الرزاق : كنا نرى أنه مالك ، ولم يعرف هذا الاسم غيره ولا خرب أكباد الإبل إلى أحد مثل ما خربت إليه .

= الذى عرفت به مصر منذ القدم ويرجع تاريخ كتابتها إلى القرن الثالث الهجرى راجع (أدب مصر الإسلامية دكتور محمد كامل حسين) ص٣٩ .

(١) الإمام مالك للدكتور محمود عبد المتجلى خليفة عضو لجنة الفتوى بالأزهر وانظر الديباج ص١٧ – ٢١ .

(٢) الإمام مالك للدكتور محمود ١ / ٢١ .

(٣) أخرجه الترمذى فى كتابه العلم باب ما جاء فى عالم المدينة جـ٥ / ص ٤٧ والحاكم فى المستدرك جـ١ ص ٩٠ – ٩١ وابن أبى حاتم فى المقدمة ص ١١ – ١٢ والخطيب فى تاريخ بغداد فى مواضع متعددة .

وقال القاضى عبد الوهاب المالكى : لا ينازعنا فى هذا الحديث أحد من أرباب المذاهب إذ ليس منهم من له إمام من أهل المدينة فيقول : هو إمامى ، ونحن نقول : إنه صاحبنا بشهادة السلف له ، وبأنه إذا أطلق بين العلماء قال : عالم المدينة وإمام دار الهجرة فالمراد به مالك دون غيره من علمائها .

وقال القاضى عياض بن موسى المالكى احتجاجنا بهذا الحديث من ثلاثة أوجه :

الأول تأويل السلف أن المراد به مالك ، وما كانوا ليقولوا ذلك إلا عن تحقيق .

الثانى : شهادة السلف الصالح له وإجماعهم على تقديمه يظهر أنه المراد إذ لم تحصل الأوصاف التى فيه لغيره ولا أطبقوا على هذه الشهادة لسواه .

الثالث : ما نبه عليه بعض الشيوخ أن طلبة العلم لم يضربوا أكباد الإبل من شرق الأرض وغربها إلى عالم ، ولارحلوا إليه من الأفاق رحلتهم إلى مالك وذلك لأن مالكا لزم المدينة ولم يرحل فى طلب العلم ولم ينتقل منها طيلة حياته إلا حاجاً إذ وجد العلم كله فى المدينة وأحاديث النبىﷺ متوافرة فيها فلهذا لم يحتج إلى الرحلة عنها .

فالناس أكيس من أن يحمدوا رجلا من غير أن يجدوا أثار إحسان

وكان يرى أن العلم هو علم المدينة ، وأتى الناس تبع لأهل المدينة التى إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن وهو مقام رسول الله ﷺ وبها أصحاب الذين علمهم ، وأن الناس صاروا تبعا لهم فيه ، فلهذا لم يأبه مالك بالرحلة العلمية ما دام العلم هو علم أهل المدينة .

وأخرج ابن عبد البر فى الاستيعاب عن مصعب ابن عبد الله الزبيرى عن أبيه قال : كنت جالساً بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع مالك فجاء رجل فقال : أيكم أبو عبد الله مالك ؟ فقالوا : هذا فجاء فسلم عليه واعتنقه وقبله بين عينيه وضمه إلى صدره وقال : والله لقد رأيت البارحة رسول الله ﷺ جالساً فى هذا الموضع فقال : هاتوا مالكاً فأتى بك ترعد فرائصك فقال : ليس عليك بأس يا أبا عبد الله وكناك وقال : إجلس . فجلست فقال : افتح حجرك . ففتحت فملأه مسكا منثوا وقال : ضمه إليك وبثه فى أمتى .

فبكى مالك طويلاً وقال : الرؤيا تسر ولا تغر ، وإن صدقت رؤياك فهو العلم الذى أودعنى الله[1] .

وروى أبو نعيم فى الحلية عن المثنى بن سعيد قال : سمعت مالكاً يقول : ما بت ليلة إلا رأيت فيها رسول الله ﷺ [2] وروى أبو نعيم عن خلق بن عمرو قال : دخلت على مالك فقال : انظر ما ترى تحت مصلاتى ، أو حصيرى ؟ فنظرت فإذا أنا بكتاب ، فقال : اقرأه فإذا فيه رؤيا رآها له بعض إخوانه فقال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فى مسجده قد اجتمع الناس

(١) الحلية لأبى نعيم ٦ / ٣١٧ .
(٢) الحلية ٦ / ٣١٧ .

عليه فقال لهم إنى خبأت لكم تحت منبرى طيباً أو علما وأمرت مالكاً أن يفرقه على الناس ، فانصرف الناس وهم يقولون : إذا ينفذ مالك ما أمره به رسول الله ﷺ ، ثم بكى فقمت عنه[1] .

وروى عن إسماعيل بن مزاحم المروزى ، وكان من أصحاب ابن المبارك من العباد قال : رأيت النبى ﷺ فى المنام فقلت : يا رسول الله من نسأل بعدك ؟ قال مالك بن أنس[2] .

وروى عن أبى عبد الله مولى الليثيين وكان مختارا — قال : رأيت رسول الله ﷺ فى المسجد قاعدا والناس حوله ، ومالك قائم بين يديه ، وبين يدى رسول الله ﷺ مسك وهو يأخذ منه قبضة قبضة فيدفعها إلى مالك ومالك ينشرها على الناس . قال مطرف : فأولت ذلك والعلم وإتباع السنة[2] .

كل هذا يدل على أن الإمام مالك أحد النبلاء وأكمل العقلاء ورث حديث رسول الله ﷺ ونشر فى أمته فانتفع به العامة والخاصة واستفاض علمه ومذهبه فى المغربين والمشرقين .

ومما يدل على أن الله أثره على أقرانه ما رواه محمد بن رمح النجيبى يقول : رأيت النبى ﷺ فيما يرى النائم فقلت يا رسول الله قد اختلف علينا فى مالك وللبث فأيهما أعلم ؟ قال مالك ورث حدى ، معناه أى علمى[3] .

ثناء الأئمة عليه :

فهو إمام الحرمين ، المشهور فى البلدين الحجاز والعراقين المستفيض مذهبه فى المغربين والمشرقين مالك بن أنس رضى الله عنه قال الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه : إذا جاء الأثر فمالك النجم وما أحد آمن على علم من مالك : يريد بقوله فمالك النجم يعنى قوله تعالى (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) .

وقال أيضاً : إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب وما أحد أمن على فى علم الله من مالك بن أنس ، وقال : مالك وسفيان بن عيينة القرينان لولاهما لذهب علم الحجاز[1] .

وقال : لم يبلغ أحد مبلغ مالك فى العلم لحفظه وإتقانه وصيانته وجعلت مالكا حجة بينى وبين الله .

وقال : إذا جاءك الحديث عن مالك فشد يدك به قال : وكان مالك إذا شك فى بعض الحديث طرحه كله .

---

(١) الحلية المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الحلية ٦ / ٣١٧ .

(٥) حلية الأولياء ٦ / ٣٢٢ .

وروى ابن معين عن هارون الأبلى قال : سمعت الشافعي يقول : الحديث يدور على ثلاثة ، وقال يونس بن عبد الأعلى عن الشافعى : إذا جاءك الأثر فمالك النجم ومالك وابن عيينة القرينان[1] .

ثناء الإمام أحمد بن حنبل على مالك قال رضى الله عنه :

رحمة الله على مالك . القلب يسكن إلى حديثه وإلى فتواه ، حقيق أن يسكن إليه مالك عندنا حجة ، لأنه شديد الإتباع للآثار التى تصع عنده وقال عبد الله بن حمد بن حنبل : قلت لأبى من أثبت أصحاب الزهرى ؟ قال : مالك أثبت فى كل شيئ

وقال حرب : قلت لأحمد : مالك أحسن حديثاً عن الزهرى أو ابن عيينة ؟ قال : مالك ، قلت : معمر ؟ فقدم مالكاً إلا أن معمراً أكبر[2] .

ثناء الليث بن سعد على مالك :

قال الليث رحمه الله تعالى : والله ما على وجه الأرض أحب إلى من مالك ، وقال : علم مالك علم نقى ، مالك أمان لمن أخذ به من الأنام .

ثناء البخارى على مالك :

قال محمد بن إسحاق الثقفى : سئل محمد بن إسماعيل البخارى عن أصح الأسانيد ، قال مالك عن نافع عن ابن عمر ، وقال : مالك أمير المؤمنين فى الحديث[3] .

وقال أبو يوسف صاحب أبى حنيفة وكان قرينا لمالك فى الزمان : ما رأيت أعلم من ثلاثة : مالك . وابن أبى ليلى وأبى حنيفة وكان أبو حنيفة وابن أبى ليلى شيخى أبى يوسف ، فوضع مالك معهما دليل على أن أبا يوسف يجعله فى مرتبة شيوخه[4] .

ثناء يحيى بن معين

قال يحيى بن معين : " مالك أمير المؤمنين فى الحديث " ، وقال : " كان مالك من حجج الله على خلقه " وقال : لا تبالى أن تسأل عن رجال مالك كل من حدث عنه ثقة[5] ، وقال أثبت أصحاب الزهرى مالك ، وقال : هو أثبت فى نافع من أيوب وعبيد الله بن عمر .

ثناء ابن المدينى على مالك :

سئل على بن المدينى ، من أثبت أصحاب نافع ؟ قال : مالك وإتقانه وأيوب وفضله ، وعبيد الله وحفظه .

---

(١) تهذيب التهذيب ٨ / ٧ – ١٠ ، الجمع والتعديل ١ / ٤ ، ١٣ .
(٢) تهذيب التهذيب ٦ / ٨ .
(٣) الإمام مالك للدكتور محمود عبد المنجلى ١ / ٢٦ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) تهذيب التهذيب ٦ / ٨ .

وقال على : لم يكن بالمدينة أعلم بمذهب تابعيهم من مالك وقال على بن المدينى : سمعت يحيى بن سعيد يقول : أصحاب نافع الذين رووا عنه : أيوب ، عبد الله ، مالك قال على : هؤلاء أثبت أصحاب نافع قال : وسمعت يحيى بن سعيد يقول : ما فى القوم أصح حديثاً من مالك يعنى السفيانين ومالكاً قال ومالك أحب إلى من معمر قال : وأصحاب الزهرى مالك فبدأ به ثم بفلان وفلان وكان ابن مهدى لا يقدم على ذلك أحداً .

وقال ابن المدينى : سمعت ابن مهدى يقول : كان وهيب لا يعدل بمالك أحد . وقال وهيب ليحيى بن حسان : ما بين شرقها وغربها أحداً من عندنا يعنى على العلم من مالك والعرض على مالك أحب إلى من السماع من غيره[1] .

هذا وسبب إمامة مالك فى الحديث والسنة التى هى فتاوى الصحابة وأقضيتهم وكذلك فتاوى التابعين وأقضيتهم أن مالكا كان فقيها ، فكان يحفظ أحاديث رسول الله ﷺ ويعرف معها فتاوى الصحابة والتابعين لكيلا يشذ فى فتواه عن سلف الأمة[2] .

اجتهاده وحفظه للعلم :

كان اجتهاده أساس نبوغه والوصول إلى غايته وكان لا يعوقه فى سبيله حر ولا برد . كان يذهب فى الهجيرة إلى بيوت العلماء ينظر خروجهم ويتبعهم حتى المسجد . وكان يجلس على باب دار الشيخ فى شدة البرد ، ويتقى برد المكان بوسادة يجلس عليها صوراً على ما يبدر من حدة شيوخه ، ويتلقاها بصدر رحب لأن ما يجنيه من علمهم يذهب بفضاضة الحدة ، ولاذع القول وحرارة اللوم ولو كان غير مبرر أحياناً ، لأنه كان يرى أن المجاهدة فى طلب العلم مما يثبته ويمكنه فى النفس لكل شيئ فى هذا الوجود .

وكان الإمام مالك يقول فى هذا : لا يبلغ أحد ما يريد من العلم حتى يضربه الفقر ويؤثره على كل حال[1] .

وكان اجتهاده فى طلب العلم من أسباب إدراكه لحقائق الأمور وفهمه لكتاب الله تعالى وللحديث النبوى وكان يأخذ تلاميذه بذلك فيحثهم على احتمال المشاق فى طلب العلم بالقول والعمل .

فلم يطلبه إلا لذات الله تعالى لا يبغى به علوا ولا استكباراً ولا مراء ولا جدال ونقى نفسه من كل شوائب الفرض والهوى فأخلص فى دراسته وأخلص طلب الحقيقة وكان الدافع للإمام – رحمه الله – فى اجتهاده إخلاصه ابتغاء مرضاة الله وأن العلم قربة يتقرب بها إلى الله تعالى والأعمال بالنيات فلا ينال من الخير إلا بمقدار إخلاص النية ، واحتسابها لربه .

---

(١) المصدر السابق ٦ / ٩ .

(٢) الإمام مالك للدكتور محمود عبد المنجلى ١ / ٢٧ .

(٣) المصدر السابق ١ / ٦٣ .

وكان يعلم أن العلم نور وأن نور العلم لا يؤنس إلا من امتلأ قلبه بالتقوى والإخلاص . ولذلك أثر عنه رضى الله تعالى عنه أنه كان يقول : العلم لا يأنس إلا بقلب تقى خاشع ما زهد أحد فى الدنيا إلا أنطقه الله بالحكمة[1] .

فقد التزم فى طلب العلم أموراً واجتنب أموراً . فالتزم السنة والإفتاء فيما يقع من المسائل دون أن يفرض مسائل لم توجد ، خشية أن يضل أو يبعد عن سنة رسول الله ﷺ أو يدفعه فرض أشياء لم تقع إلى المغالاة فى أمور وفرض غير المعقول .

والتزم إلى ذلك الأناة فى الإفتاء ، فيفكر بعمق ولا يسارع إلى الإفتاء ، فإن المسارعة إلى الإفتاء قد تجر إلى الخطأ قال تلميذه عبد الرحمن القاسم : سمعت مالكاً يقول : إنى لأفكر فى رسالة منذ بضع عشرة سنة ما اتفق لى فيها رأى إلى الآن ، وكان يقول : ربما وردت على مسألة فأشهد فيها عامة ليلتى .

لقد من الله تعالى على الإمام بحافظة قوية ، فكان يعى ما يسمع ، وكان إذا استمع لشيئ استمع فى حرص واناة ، استمع فى جلسة واحدة لأربعين حديثاً شريفاً من ابن شهاب الزهرى فتلاها عليه فى اليوم الثانى وقد ند منه النيف ، وحدث ذلك أكثر من مرة قال له الزهرى : أنت من أدعية العلم لنعم المستودع للعلم .

لقد كانت الحافظة المستوعبة شيمة عصر مالك نفسه حيث العلم يتلقى من أفواه الرجال وأحاديث الرسول ﷺ تستوعبها القلوب . ويأخذ الكتاب والكراسة مرتبة ثانية فلا عجب أن يعمل مالك رضى الله عنه على تنمية حفظه ويكون للذاكرة منزلة الصدارة وإذا كان التدوين قد أخذ يحتل الصدارة فترة شباب مالك . فإن مالكاً لم يهمل ذاكرته ، بل اعتمد عليها إلى مدى بعيد بجانب ما دونه فى حضرة مشايخه ، أو بعد حضرتهم فيرى جالساً إلى ظل شجرة يدون ما سمع ، وبهذه الذاكرة الفريدة صار المحدث الأول فى عصره كأنه النجم الثاقب وإذا كانت الذاكرة القوية أساساً للنبوغ فى أى علم فإنها ألزم للمحدث لشدة الحرص على رواية الحديث كما فاه به رسول الله ﷺ [2] .

ومع هذه الذاكرة القوية والوعى الشامل لم يكن يلقى على تلاميذه إلا ما يرى فيه مصلحة للناس بعد أن تستقيم مع مقاييس نقده وفحصه ، وتمييز الصحيح منها من غيره ، حتى أنهم وجدوا بعد موته صندوقين من الكتب قد دونها ولم يعلنها .

قال بعض أبناء تلاميذه : وجدنا فى تركة مالك صندوقين فبهما كتب ، فجعل أبى يقرؤها ويبكى ويقول : رحمك الله يا مالك ، لقد كنت تريد بعلمك وجه الله تعالى ثم قال : لقد جالست مالكاً دهراً طويلاً ، وما سمعته يحدث بشيئ مما قرآناه .

---

(١) الإمام مالك للدكتور / محمود عبد المنجلى ١ / ٦٤ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٦٧ .

قال الشافعي : قيل لمالك : عند ابن عيينة أحاديث لست عندك ، فقال : إذا حدثت بكل ما سمعت إني إذن أحمق ، إني أريد أن أضلهم إذن ، ولقد خرجت مني أحادي لوددت أني ضربت بكل حديث منها سوكاً ولم أحدث بها .

جلوسه للدرس والإفتاء :

بعد أن اكتملت دراسة الإمام للأحاديث والآثار اتخذ له مجلساً في المسجد النبوي للتدريس والإفتاء ، والذى يجلس فى مجالس هؤلاء التابعين وتابعيهم الذى كانوا يقصدون من مشارق الأرض ومغاربها ، لابد أن يكون على حظ كبير من العلم ، وفى حال من الإجلال والاحترام والتقدير اسمح له بأن يكون مقصد طلاب العلم ، موقع ثقتهم ويكون لكلامه مكان من الاعتبار ، كذلك كان مالك عندما قصد التدريس والإفتاء ، وهو نفسه كان يحاول أن يستوثق من رأى شيوخه فيه ، واقرارهم بأنه ذلك أهل ، وقد كانت تجرى مع لسانه تلك الكلمات الرائعة : " لا خير فيمن يرى نفسه فى حال لا يراه الناس أهلاها " .

وقال رضى الله عنه : " ما جلست للفتيا والحديث حتى شهد لى سبعون شيخا أني أهل لذلك " .

وقال : ليس كل من أحب أن يجلس فى المسجد للحديث والفتيا جلس حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل ، فإن رأوه لذلك أهلاً جلس .

وجاء رجل يسأل مالكاً عن مسالة فبادر تلميذه عبد الرحمن بن القاسم فأفتاه ، فاقبل عليه مالك غاضباً ، وقال له : جسرت على أن تفتى يا أبا عبد الرحمن يكررها عليه ما أفتيت حتى سالت : هل أنا للفتيا موضع ؟ فلما سكن غضبه قالوا له : من سألت ؟ قال : الزهرى[1] وربيعة .

متى يصلح الإنسان للإفتاء :

ومن هذا يتبين أن مالكاً ما كان يرى الشخص يصلح للافتاء إلا بعد النضج الكامل ، وقد طبق هذا القول على نفسه ، فما افتى حتى نضج واكتمل وشهد له سبعون من شيوخه الثقات منهم يحيى بن سعيد القطان ، وربيعة بن أبي عبد الرحمن ، محمد بن شهاب الزهرى .

وقد التزم مالك فى درسه الوقار والسكينة والابتعاد عن لغو القول ، وما لا يحسن مثله ، وكان يرى ذلك لازماً لطالب العلم .

يروى أن نصح بعض أولاد أخيه فقال له : تعلم لذلك العلم الذى علمته السكينة والحلم والوقار .

قال إبراهيم بن هارون الليثى : كان لا يحضر مجلس مالك لفط ولا لغو ، وكان مهيباً إذا سئل عن الشيئ فأجاب سائله لا يراجعه السائل ولا يقول له : من أين رأيت ؟ وقد لازمته هذه الهيبة طول المدة التى ألقى فيها دروسه ، وكان يعطى نفسه عند التحديث عن النبى ﷺ سمتاً

(١) الإمام مالك حياته وأراؤه وفقهه ٢٨/١ ، د/ محمد عبد المتجلى .

أحسن ومظهراً أروع فكان إذا حدث توضأ وتهيأ ، ولبس أحسن ثيابه ، وتطيب وتعمم وعليه الخشوع يبخر المجلس حتى يفرغ من التحديث ، وكان الإمام يأمر فيمثل أمره بغير سلطان ويقول فلا يسأل عن دليل ، ولا يطالب ببرهان ، ويأتى الجواب فلا يجترئ على مراجعته إنسان .

وقال الزهرى دخل على مالك شاعر فمدحه بقوله :

يدع الجواب فلا يراجع هيبة ... والسائلون نواكس الأذقان

أوب الوقار وعز سلطان التقى ... فهو المطاع وليس ذا سلطان

مجلسه بالحرم النبوى :

هذا وكان مجلس مالك فى المسجد النبوى الشريف هو المكان الذى كان يجلس فيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه للشورى والحكم والقضاء ، وكأنه يتقفى آثار عمر فى جلوسه ، وقد تأثر بفتاويه وأقضيته التى رواها عنه ابن المسيب وغيره من التابعين فإن هذا المكان هو نفس مكان رسول الله ﷺ الذى كان يجلس فيه فى المسجد .

ويبدو أن تلمس الآثار والقدوة تبع مالكاً فى كل شئ فقد كان يسكن فى دار عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

عاش مالك رضى الله عنه تحف به آثار التابعين والصحابة ويتلقى عن التابعين فتاوى الصحابة ويخص منهم ذوى الرأى بالعناية فيتتبع أخبار عمر وابن مسعود وغيرهما من فقهاء الصحابة ويتعرف أقضيتهم وأحكامهم ، ويحرص فى دراسته أن يكون متبعاً لا مبتدعاً .

وكان يرى فى أعمال أهل المدينة ومكاييلهم موازينهم وأخبارهم ما ينير السبيل أمام الفقه لمقتص للآثار يستنبط على ضوئها ويسير على هديها ، والتزام فى مجلسه بالكتاب والسنة ، وكان يحرز أن يقول هذا حلال ، وهذا حرام من نص منهما ويقول : اكره هذا .

وأما فيما يراه من الكتاب والسنة فيذكر رأيه من غير أن يقطع بحرمه وكثيراً ما يقول (إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقفين) .

ويقول : ما من شيئ أشد على من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام ، فإن هذا هو القطع فى حكم الله ، ولقد أدركنا أهل العلم ببلدنا ، وأن أحدهم إذا سئل عن مسألة الموت أشرف عليه .

وإن عمر بن الخطاب وعلياً وخيار الصحابة كانت ترد عليهم المسائل ، وهم خير القرون الذين بعث فيهم النبى ﷺ، فكانوا يجمعون الصحابة ويسألونهم وبعد ذلك يفتون .

وقد سئل رضى الله عنه اثنتين وعشرين مسألة فأجاب عن اثنتين فقط ، وأعلن عن الباقى فى أنه لا يحسنها ، وهكذا كان إذا لم يكن يعرف وجه الحق على اليقين قال : لا أحسن وما يبالى الناس .

علاقته بالخلفاء والأمراء :

لقد كانت ولادة مالك فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وقد أعقب حكم الوليد حكم سليمان أخيه ثم كانت خيرة الله فأختير عمر بن عبد العزيز بن سليمان فتفتحت مدارك مالك على حكم عمر هذا ، وكان على جانب عظيم من التقوى والزهادة والحزم والقوة فحكم البلاد الإسلامية حكماً دينياً أشبه بحكم عمر بن الخطاب ، وإن كان الفاروق قد عز مثيله .

ولقد أعجب به مالك أشد الإعجاب ، وكان يراه صورة عالية للحاكم العادل ويتبع سيرته حتى ليروى أنه روى بعضها وحفظها .

ولكن حكم ذلك الإمام العادل كان كموضة البرق غاب وشيكا إذ ولى الخلافة سنة ٩٩ ومات سنة ١٠١هـ ، فهو قد مات ومالك رضى الله عنه فى نحو الثامنة من عمره وهى سن تدرك ، وإن لم يستطع الموازنة والفحص .

وجاء من بعده من خلفاء بنى أمية من سلك غير سبيله ولم يستسن بسنده ، وركب بالأمة الصعب والزلول فاستحكمت الشهوات وحكمت الأهواء ، وكأن الله جلت قدرته قد أتى بذلك الإمام فى وسط ذلك الجو ليرمى الناس قدرته على أن يمدهم بالصالح إن استقاموا وساروا على الجادة والله بكل شئ محيط كانت طريقته فى الإصلاح حسب ما ارتآه ألا يناصر أحدا عند الفتن ، لأن الفريقين فى إثم فلا يعاون أحدهما على الأخر ، وبذلك أجاب عندما سئل عن قتال الخارجين على الخليفة فقد قال له قائل : أيجوز قتالهم ؟ فقال : إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز ، قال : فإن لم يكن مثله ؟ فقال : دعهم ينتقم الله من ظالمهم بظالمهم ثم ينتقم من كليهما ، وكان يرى أن الموعظة الحسنة فى إبائها أجدى من الثورة والدعوة إلى الفتنة ومع ذلك كانت صلته بالخلفاء والولاة صلة حسنة .

استدعاه أمير المدينة إلى الحضور للمشورة فامتنع حتى شاور فى ذلك من شاور من التابعين ، فأشاروا عليه بالذهاب ورأوه لذلك أهلاً ، قال الزواوى فى ترجمة مالك : " وأما رفعة قدره مع الخلفاء وعظيم فعزلته عند الأمراء ورجوعهم إلى رأيه دون غيره من الآراء وتقديمهم له على من سواه ونفوز كلمته فى العامة وانقيادهم له بالطاعة ، وكمال سيادته عند الكافة فقد كان له فى ذلك المقام الأرفع بحيث أنه لم يكن فى وقته من يساويه ولا من يقرب منه ولا طمع فيه أحد معه "[1] . فكانت الخلفاء تقتدى بعلمه والأمراء تستضيئ برأيه والعامة منقادة إلى قوله .

وكان الخلفاء يسألونه أن يراسلهم فلا يرضى بذلك ويعرض عليه أن يقتضى فيعرض عن ذلك ، وكانوا مع ذلك يسألونه ويتعلمون منه ويأتونه ويجلسون إليه ويأمرون نوابهم باستشارته ولا يقتضى أمر دون مشورته " .

---

[1] الإمام مالك للدكتور محمود عبد المتجلى ١/٤٤ .

بلغ أبا جعفر المنصور الخليفة أن بعض العلماء يطعنون على مالك ويتكلموا فيه ، فبعث إلى مالك ليلاً فأتاه خائفاً ، فدخل إليه بين صفوف رجال شاكى السلاح حتى خلص إليه مالك فوجده فى بيته جالساً ليس معه غيره ، قال مالك : فجعل يدنينى حتى جلست قريباً منه ، ثم استدنانى حتى مست ركبتى ركبته فقال : ما هذا الذى يبلغنا عنكم معا شر الفقهاء ، وأنتم أحق الناس بالطاعة وأعرفهم بما يلزم من حق الأئمة .

فقال يا أمر المؤمنين إن الله تعالى يقول فى كتابه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾[1] ، فجرى بينهما كلام ومذاكره إلى أن ذكر له مالك أنه لما بعث إليه ليلاً وطلبه خاف منه القتل على نفسه ، فقال أبو جعفر : حاشا لله يا أبا عبد الله أن أتلم ركنا للمسلمين فإن لم يكن بالذى ابنيه لهم ، فلست بها دمه لهم ، ولكن أن أردت ما عندنا فذهب معى إلى المدينة السلام فلا أقوم أحد عليك فقال له مالك : إن تكن عزيمة من أمير المؤمنين فلا سبيل إلى مخالفته ، وإن تكن غير ذلك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون "[2] ، فقال له المنصور : لا أحمل عليك شيئاً تكرهه .

فبينما هما فى أثناء الكلام خرج عليهما بعض أولاد المنصور فلما راى مالكاً فزع ورجع فقال المنصور : أتدرى مم فزع ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ، قال : لأنه لم ير أحداً جلس منى هذا المجلس غيرك ، فلما انصرف مالك أجازه المنصور بثلاثة ألاف دينار .

فلما خرج مالك قال ابن منصور لبيه : أتدنى رجلاً من رعيتك حتى يجلس منك هذا المجلس ؟ فقال له منصور : يا بنى والله ما على ظهر الأرض اليوم رجل يستحيا منه إلا مالك بن أنس وسفيان الثورى . قال مالك : ووجدت المنصور أعلم الناس بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وأثار من مضى .

قال مالك : قال لى أبو جعفر المنصور يوماً : أعلى ظهرها أحد أعلم منك ؟ قلت : نعم ، قال : أنمهم لى ، قلت لا احفظ أسماءهم ، قال : قد طلبت هذا الشأن فى زمن بنى أمية ، وقد عرفته : أما أهل العراق فأهل كذب وباطل وزور ، وأما أهل الشام فأهل جهاد ليس عندهم كبير علم ، وأما أهل الحجاز ففيهم بقية العلم ، وأنت عليم الحجاز فلا تردن على أمير المؤمنين قوله ، قال مالك : قال لى : قد أدرت أن أجعل هاذ العلم علماً واحداً أكتب به إلى أمراء الأجناد وإلى القضاة ويعملون به فمن خالف ضربت عنقه .

فقلت يا أمير المؤمنين : أو غير ذلك ، إن النبى ﷺ كان فى هذه الأمة فكان يبعث السرايا ، وكان يخرج ، فلم يفتح من البلاد كثير حتى قبضه الله عز وجل و ثم قام أبو بكر رضى الله عنه بعده فلم يفتح من البلاد كثيراً ، ثم قام عمر رضى الله عنه بعدهما ففتحت البلاد على يديه

---

(١) سورة الحجرات الآية : ٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه .

فلم يجد بداً أن يبعث أصحاب رسول الله ﷺ معلمين ، فلم يزل يؤخذ عنهم كابراً عن كابراً إلى يومنا هذا فإن ذهبت توليهم عما يعرفون على ما لا يعرفون رأوا ذلك كفراً ، فأقر أهل كل بلد على ما فيها من العلم وخذ هذا العلم لنفسك ، فقال لى : ما أبعدت هذا القول .

وقال مالك : قدم علينا أبو جعفر أمير المؤمنين سنة خمسين ومائة فدخلت عليه ، فقال لى : يا مالك كثر شيبك ، قلت : يا أمير المؤمنين من أتت عليه السنون كثر شيبه ، فقال لى : يا مالك ، مالى أراك يعتمد على قول بان عمر من بين أصحاب رسول الله ﷺ ، قلت : يا أمير المؤمنين كان أخر من بقى عندنا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فاحتاج الناس إليه فسألوه وتمسكوا بقوله ، قال : يا مالك عليك بما تعرف إنه الحق عندك[1] .

نصحه لأبى جعفر المنصور :

وذكر القاضى عياض فى ترتيب المدارك بسنده أن أبا جعفر المنصور ناظر مالك فى مسجد رسول الله ﷺ ، فقال له مالك : يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد فإن الله عز وجل يقول : ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[1] ، ومدح قوما ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[2] ،وذم قوما فقال : " إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون " ، وأن حرمته ميتا كحرمته حيا فاستكان لها أبو جعفر ، وقال : يا أبا عبد الله استقبل القبلة وادعوا أم استقبل رسول الله ﷺ ؟ فقال : ولم تغرب وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام – يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به ليشفعه الله فيك . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[3] .

موقف مالك من المهدى :

لما حج المهدى بعث إلى مالك بألف دينار ، وقال : إن أمير المؤمنين يريد أن تصحبه إلى مدينة السلام ، فقال مالك : قال رسول الله ﷺ" والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون " والماء عندى على حاله : فسكت المهدى ، ولما قدم المهدى المدينة ونزل وجه إلى مالك ببغله ليركب ويأتيه فرد

(١) مقدمة الجرح والتعديل ١/٣٠ .

(٢) سورة الحجرات الآية : ٢ .

(٣) سورة الحجرات الآية : ٣ .

(٤) سورة النساء الآية : ٦٤ .

مالك البغلة ، وقال : إنى لاستحيى من الله أن أركب فى مدينة فيها جسد رسول الله ﷺ وأتاه ماشياً ، وكانت به علة فأتكا على المغيرة بن عبد الرحمن المخزومى ، وعلى حسن بن أبى زيد العلوى ، وعلى ابن على اليمنى وكانوا من علماء المدينة وأشرافها فقال المهدى : سبحان الله و رد البغلة إجلالاً لرسول الله ﷺ فقيض الله له هؤلاء ، فوالله لو دعوتهم أنا إلى هذا ما أجابونى إليه فقال له المغيرة : نحن يا أمير المؤمنين قد افتخرنا على أهل المدينة لما اتكأ علينا مالك .

مالك وهارون الرشيد :

لما قدم هارون الرشيد أمير المؤمنين بعث إلى مالك فلم يأته فقال : له أبو يوسف : يبلغ أهل العراق أنك بعثت إلى مالك فلم يأتك ، ابعث إليه من يأتيك به كرها ، فبعث إليه الرشيد مرة ثانية فأتاه مالك ، فقال : له الرشيد : يا ابن أبى عامر ابعث إليك فتخالفنى ، فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنى الزهرى عن خارجه بن زيد بن ثابت عن أبه قال : كنت أكتب الوحى بين يدى رسول الله ﷺ فنزلت " لا يستوى القاعدون من المؤمنين " وابن أم مكتوم عند النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله إنى رجل ضرير ، وقد أنزل الله تعالى فى فضل الجهاد ، ما قد علمت : فقال النبى ﷺ : لا أدرى وقلمى رطب ما جف حتى وقع فخذ النبى ﷺ على فخذى ثم أغمى عليه ، ثم جلس ﷺ ، فقال يا زيد : أكتب " غير أولى الضرر" يا أمير المؤمنين حرف واحد بعث به جبريل والملائكة من مسيرة خمسة ألاف عام ألا ينبغى أن أعزه وأجله ، إن الله تعالى رفعك وجعلك فى هذا الموضع بعلمك فلا تكن أول من يضع عز العلم فيضع الله عزك .

فقال له الرشيد : تأتينا حتى نتعلم عليك ونسمع منك قال : أصلحك الله إن العلم يؤتى ولا يأتى ، قال : تأتى وتمنع الناس حتى تتصرف ، قال : إذا منع العلم من العامة لم ينفع الله به الخاصة ولا العامة .

فقال له : فتقرأ على إذا آيتك ، قال له : ما قرأت على أحد منذ كذا وكذا ، ولا أقرأ على أحد بعد ذلك قال : فتجعل من يقرأ ونحن نسمع ، قال : ذلك لك فذهب الرشيد إلى منزل مالك وأجلس مالكاً على المنصة التى يجلس عليها حتى يسمع الحديث فقال له مالك : أي أمير المؤمنين ما أدركت أهل بلدنا ألا وهم يحبون أن يتواضعوا لله ، فنزل الرشيد عن المنصة ، وجلس بين يدى مالك رضى الله عنه تواضعاً لعلمه وانقياداً لقوله .

وهكذا ذهب الرشيد إلى منزل مالك ، وتعلم منه وسمع عليه ، وكان القارئ معن بن عيسى الفزارى[1] .

وقد بلغ الزهد فى الإمام مبلغه عندما رفض طلب الخليفة فرض مذهب قال عبد اله بن عبد الحكم : سمعت مالكاً يقول شاورنى الرشيد أن يعلق الموطأ فى الكعبة ويحمل الناس على ما فيه .

---

(١) الإمام مالك للدكتور محمود عبد المتجلى ٥٢/١ .

فقال الإمام : يا أمير المؤمنين أما تعليق الموطأ فى الكعبة فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا فى الفروع وتفرقوا فى الأفاق وكل عند نفسه مصيب .

ولما كرر الرشيد الطلب على الإمام فى نشر الموطأ ، قال له : يا أمير المؤمنين إنه اختلاف العلماء رحمه الله على هذه الأمة كل يتبع ما صح عنده ، وكل على هدى وكل يريد الله[1] .

جهود الإمام مالك فى الحديث :

لقد شرف الله عز وجل الإمام مالك بمولده ونشأته فى مدينة رسول الله ﷺ وهى مليئة بالعلم والعلماء غاصة بالمحدثين والفقهاء مما هيأ لاستقراره بها وعدم ارتحاله خارجها كما كان دأب المشتغلين بالعلم آنذاك وعن كبار التابعين وأئمة المحدثين أخذ مالك وأثمرت هذه المجالسة إمامته أهل الحجاز فى الفقه والحديث وجعلته شيخ الإسلام وأحد الهداة الأعلام الذين طبقت شهرتهم كل مكان وسار بذكرهم الكبار وارتحل إليهم وفوخر بالأخذ عنهم ويكفى الإمام مالك فخراً أن يجلس إليه ويتهادى بين يديه حتى إنه ليكن كالصبى إمام أبيه إجلالاً وتوقيراً وتواضعا وأدباً لإمام الفقهاء وشيخهم أبو حنيفة .

ومن دلائل فضله وشواهد نبله ورسوخ قدمه فى العلم رواية بعض شيوخه عنه كالزهرى أثبت الناس فى الرواية عنه وابن سعيد الأنصارى .

وقد جمع الإمام مالك بين الفقه والحديث فكان فقيه المحدثين ومحدث الفقهاء بلا منازع ، وأكثر العلماء مجمعون على أنه المعنى بحديث أبى هريرة رضي الله عنه " ويوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فى طلب العلم وفى رواية " يلتمسون العلم فلا يجدون عالماً أعلم – وفى رواية " أفقه من عالم المدينة "[2] .

وحظى الإمام مالك بالنبوئة الصادقة فضربت إليه أكباد الإبل وأقبل الناس إليه من كل صوب وحدب يلتمسون العلم والفقه من عالم المدينة ومحدثها وفقيهها وإمامها ومما لا ريب فيه أن عمر الإمام المدير مكنه من أن يخلف بعده الأثر المجيد والتراث الزاخر التليد فقد أنفق جل وقته فى خدمة العلم دراسة وفقها واتقانا وهضما ثم بكر بإفراز ما فهم وهضم حتى قيل إنه جلس للإفتاء والتحديث وهو فى السابعة عشر من عمره وان استبعد الشيخ أبو زهرة ذلك فالقريب الذى لا ينكر أنه تصدر للفتوى والتحديث زمناً طويلاً يقارب الثلاثة أرباع قرب وكان يخصص للفقه أياماً وللحديث أخرى . وقد امتاز عن أقرانه بالسيف إلى التصنيف أكبر وأقدم مدون حديثى فقهى . وبجانب ما امتاز به الموطأ من صحة الحديث فهو من أوائل الكتب التى دونت فى الحديث فنحن نعلم أن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه أراد أن يدون السنن النبوية واستشار فى ذلك بعض الصحابة فوافقوه على ذلك ولكنه رجع عن ذلك خشية أن تلتبس السنة بكتاب الله الكريم وأن

---

(١) ذيل المذيل للطبرى ص ١٠٧ .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب العلم باب : ما جاء فى عالم المدينة ج ٥ / ٤٧ ، والحاكم فى المستدرك ج١ / ص٩٠ – ٩١ وابن أبى حاتم فى المقدمة ص ١١ – ١٢ .

الصحابة لم يكتبوا الحديث إنما كانوا يؤدونه حفظا إلا ما رواه البخارى عن أبى هريرة فى كتاب العلم حيث يقول : ما من أصحاب النبى ﷺ أكثر حديثاً عنه منى إلا ما كان من عبد الله بن عمر فإنه كان يكتب ولا أكتب[1] .

وفى عهد عمر بن عبد العزيز كتب إلى الأمصار يعلمهم السنن والفقه وكان يكتب على علماء المدينة خاصة يسألهم . كما أمر أبا بكر ابن محمد بن حزم أن ينظر ما كان من حديث الرسول أو سننه أو حديث عمر فيكتبه خوفاً من ذهاب الحفاظ . فكان هذا كله ابتداء تدوين الحديث النبوى الشريف وورد فى تنوير الحوالك : وحدث فى أواخر عصر التابعين تدوين الأثار وتبويب الأخبار لما انتشر العلماء فى الأمصار وكثرالابتداع من الخوارج والروافض ومنكرى الأقدار فأول من جمع ذلك الربيع بن صبيح وسعيد بن أبى عروبة وغيرهما فكانوا يصنفون كل باب على حدة إلى أن قام كبار أهل الطبقة الثالثة فى منتصف القرن الثانى فدونوا الأحكام فصنف الإمام مالك الموطأ وتوخى فيه القوى من حديث أهل الحجاز ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومن بعدهم[2] .

فمالك رضى الله عنه كان من أوائل المدونين للحديث الصحيح العاملين على الحذر والاحتياط فى قبول ما يروى ، المدققين الناقدين فى المتن والإسناد ولذلك قال ابن عيينة : ما رأيت أحداً أجود أخذاً للعلم من مالك وما كان أشد انتقاءه للرجال والعلماء[3] .

ولعل مالكا كان أسبق علماء الحديث فى وضع ما عرف بفن الحديث فإننا لا نكاد نعرف من سبقه من نقد الرواه والتشدد فى الأخذ عن الرواة والعلماء ، وكذلك فعل فى ما رواه فى المسائل الفقهية لأن الموطأ مزيج من حديث وتفسير وفقه وتاريخ لأن العلوم لم تكن قد تحددت معالمها بعد ولارتباط هذه العلوم بعضها ببعض وتداخلها بحيث احتاجت هذه العلوم إلى وقت طويل تطورت فيه حتى انفصل بعضها عن بعض واتخذت معالمها المحددة التى هى عليها اليوم . وعلى هذا النحو صنف مالك الموطأ وجمع فيه ما صح عنده من ألوان هذه العلوم المختلفة .

وقد روى الطبرى عن العباس بن الوليد عن إبراهيم بن حماد قال . سمعت مالكاً يقول : قال لى المهدى : يا أبا عبد الله ضع كتاباً أحمل الأمة عليه . قال : يا أمير المؤمنين أما هذا الصقع — وأشار إلى المغرب — فقد كفيتكه — وأما أهل الشام ففيهم الذى علمته — يعنى الأوزاعى — وأما أهل العراق[4] — فيفهم من ذلك أن المهدى هو الذى طلب من مالك أن يصنف الموطأ .

ولا يعترض على ذلك بما دونه أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أو ابن شهاب الزهرى أو بما عثر عليه من ضعف للصحابة الكاتبين أو المستكتبين أو للتابعين رضى الله عنهم أجمعين فلا

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب العلم باب كتابة العلم (حديث ١١٣) ١ / ٢٤٩ .

(٢) تنوير الحوالك جـ١ / ص٤ .

(٣) الديباج ص ٢١ .

(٤) الطبرى ذيل المذيل ص ١٠٧ .

سبيل إلى المقارنة بين ذلك كله وبين مصنف الإمام مالك حجما وشهرة وحسن ترتيب وتبويب وتفننا فى التصنيف والتأليف والناظر على مؤلفات الإمام يلحظ أن أولها فى القديم وأولاها بالتعظيم كتاب الموطأ وهو ما عنى به مالك وصرف إليه همته من الاشتغال دون غيره من العلوم والآثار .

محنته رضى الله عنه :

قد امتد عمر الإمام وقدر له أن يعايش تغيرات جذرية وأن يراقب اضمحلال دولة بنى أمية وسقوطها وأن يواكب نشأة دولة بنى العباس وازدهارها ، وأن يعاصر ثورات العلويين كتبها وإخمادها ، ولقد عرف عن الإمام عزوفه عن الفتن وأعراضه عن أهلها ، فقد كان يؤثر الصمت ويلزم بيته عند اشتداد الأمر ، ومع ذلك لم يسلم من أذاها ، وبخاصة عندما ارتفعت منزلته بين الخاصة والعامة حتى جلس الخلفاء بين يديه وقرأ الأمراء له وأخذ الخلفاء بمشورته ، وصدع الأمراء لما أمرهم به فحسده على ذلك بعض أهل العلم وافتاتوا عليه كابن إسحاق الذى نعم على مالك مكانته وجلالته فراح ينقصه ويدعى أنه من الموالى ويقول : ائتونى بعلم مالك فأنا بيطاره[1] ، وذكروا أن ابن أبى ذؤيب شارك ابن إسحاق حملته على الإمام مالك ، ولعل ذلك حقداً عليه لأن مالكاً كان يخالفهما ويطعن عليهما ، وشاركهما بعض أهل العلم ممن يؤثرون الدنيا وسعوا فيه عند أمير المدينة من قبل الخليفة أبى جعفر المنصور ، وهو جعفر بن سليمان وكادوا له حتى وصلوا إلى غايتهم بقولهم للأمير : إن مالكا لا يرى إيمان بيعتكم هذه شيئ . واختلفت الروايات فى سبب ذلك فقيل : إنه طلب للقضاء فأبى اعتبر المنصور ذلك نوعا من التمرد عليه فأوعز بضربه . وقيل إنه شارك ولو بالتحريض فى ثورة محمد ابن عبد الله بن الحسن الشهير بالنفس الذكية ، وقيل : إنه حدث بحديث " ليس على مستكره طلاق " ففهم منه التحريض على التحليل من بيعة المنصور لكن الناس أكرهوا عليها .

لم يكن سبب المحنة هو التحديث بهذا الحديث وحده بل التحديث به فى وقت الفتن واستخدام الثائرين لذلك الحديث لتحريض الناس على الخروج على الخليفة مستغلين مكانة مالك والإقتاء ، ووجد الذين يسعون بالعلماء وأهل الفضل فى ذلك سبيلاً للكيد فنهى مالك عن التحديث لهذا الحديث فلم يفعل فقد كان يرى فى السكوت عنه كتماناً للعلم ومن ثم اختلفت النظرة إلى الحديث بين مالك والحكام .

رأى مالك فى إذاعة الحديث الشريف نشراً للعلم فلم يكتمه إرضاء للحكام ورأى الحكام فى إذاعته تحريضاً على الفتنة والثورة لأن فيهما بياناً ببطلان بيعة المنصور ودس أبو جعفر لمالك من يسأله عن هذا الحديث فحدث به مالك على رؤوس الناس وتولى جعفر بن سليمان كبر المحنة ، فقبض على الإمام ومد يديه حتى انخلعت كتفه وتوالى ضربه بالسياط ضرباً مبرحاً .

وعلم أهل المدينة فاشتد سخطهم على الوالى – ولم يمنع مالك ذلك على المضى على أمره والاستمرار فى درسه . وأحس أولوا الأمر بمرارة ما فعلوه . وزاد الأمر على هذا الأمر سوءاً

(١) مقدمة الجرح والتعديل ١٩/١ .

أن أبا جعفر المنصور أقسم أنه ما أمر يضرب ولا رضى عنه وأبلغ فى الاعتذار عند ذلك أراد أبو جعفر أن يتدارك الأمر ويصلح ما فسد فلما جاء الحجاز حاجاً أرسل إلى مالك يعتذر إليه .

يقول مالك : لما دخلت على أبى جعفر وقد عهد إلى أن آتيه فى الموسم قال لى : والله الذى لا إله إلا هو ما أمرت بالذى كان ولا علمته ، إنه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم وإنى أراك أمانا لهم من العذاب ولقد رفع الله بك سطوة عظيمة ، فإنهم أسرع الناس إلى الفتن .

وقد أمرت بعدو الله جعفر بن سليمان أن يؤتى به من المدينة إلى العراق على قتب (اى بردعه صغيرة) على سنام البعير وأمره يضيق محبسه والاستبلاغ فى مهانته ، ولابد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه .

وقال لى : اقتص منه فقد ظلمك .

فقلت : يا أمير المؤمنين ليس لى عليه قصاص لأنى جعلته فى حل قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله ﷺ وقرابته منك . لأنى استحييت أن آتى يوم القيامة متعلقا برجل من قرابة رسول الله ﷺ أطلبه بمظلمته قال أبو جعفر : فعفا الله عنه ووصلك . هذه الرواية تدل على عظمة الإمام وسماحته سماحة المتبعين لسنة أفضل الأنبياء والمرسلين ﷺ وآله المتبعين إلى يوم الدين

مصنفاته :

وإذا كان التدوين المبكر حفظ لنا مدونات فى السنة كصحيفة الصادقة لابن عمر رضى الله عنهما وصحيفة هام منبه وجامع معمر بن راشد وكتب ابن جريج وهشيم فإن مصنفات الإمام مالك تأخذ طابعاً خاصاً وترسم سمات فريدة تميزها عن ذلك كله الذى سبقها .

ثم يأتى دور الإمام مالك الذى لم يكن – الموطأ – مؤلفه الوحيد بل له مؤلفات أخرى فى فنون مختلفة ، وإنما لم تشتهر عنه هذه الكتب ، لأن العلم الذى كان معنيا بنشره وبثه لأصحابه وتلاميذه هو علم الكتاب والسنة ، وما استنبط منهما وكان لا يعنى بنشر غير ذلك .

ومن أشهر مؤلفاته :

١ – الموطأ . وهو أول كتاب جمع ودون وبقى إلى يومنا هذا وشهرته ومكانته سنتكلم عنه إن شاء الله تعالى .

٢ – المدونة الكبرى الأصل الذى جمع فقه مالك وكان سبباً فى نشر أحكامه هو المدونة الكبرى لسحنون بن سعيد التنوخى[1] .

---

(١) عبد السلام بن سعيد التنوخى الحمصى الأصل المغربى القيروانى المالكى لقب بسحنون وكنتيه أبو سعيد فقيه تولى القضاء بقيروان ، سمع من سفيان بن عيينة وابن عبيد . توفى خمسة رجب سنة ٢٤٠هـ سير أعلام النبلاء ٨ / ٢٦٠ وفيات الأعيان ١ / ٣٦٦ – ديباج الذهب ١٦٠ – معجم المؤلفين ٥ / ٢٢٤ .

قال ابن رشد عن المدونة : رحل مسنون إلى أبي القاسم[1] فكان مما قرأ عليه مسائل المدونة ، ودونها فحصلت أصل علم المالكيين . وهى مقدمة على غيرها من الدواوين بعد موطأ مالك ويروى أنه قال : " ما بعد كتاب الله كتاب أصح من موطأ مالك – رحمه الله – ولا بعد الموطأ ديوان فى الفقه أقيد من المدونة والمدونة عند أهل الفقه ككتاب سيبويه عند أهل النحو وككتاب أقليدس عند أهل الحساب وموضعها من الفقه موضع أم القرآن من الصلاة تجزئ عن غيرها ولا يجزئ عنها غيرها " من كل هذا يتبين أن الأصل الذى قام عليه الفقه المالكى المعروف اليوم هى المدونة ، وهى أصدق رواية ، وأحرى بالقبول من حيث سماعها[2] .

٣ – كتاب المناسك : قال السيوطى : صنف مالك كتباً متعددة غير الموطأ ومن أكبرها كتاب المناسك[4] .

٤ – تفسير غريب القرآن : يرويه عنه خالد بن عبد الرحمن المخزومى[5] ، وقال السيوطى : وقد رأيت له تفسيراً لطيفاً مسندا .

٥ – كتاب المجالسات : وهو مجلد مشتمل على فوائد جمة من أحاديث وآثار وآداب وغيرها[6] .

٦ – القدر والرد على القدرية : وهى رسالة إلى ابن وهب وهى من خيار الكتب فى هذا الباب الدال على سعة علم مالك بهذا الشأن .

٧ – النجوم وحساب دوران الزمان ومنازل القمر : وهى رسالة فى علم الفلك وهى مفيدة جداً اعتمد عليها الناس فى هذا الباب وجعلوه أصلاً[3] .

٨ – الأقضية وهى رسالة كتب بها لبعض القضاة .

٩ – السير من رواية ابن القاسم .

١٠ – رسالة إلى الرشيد فى الآداب والمواعظ .

وإنما لم تشتهر عنه هذه الكتب لأن العلم الذى كان معنيا بنشره وبثه لأصحابه وتلاميذه هو علم الكتاب والسنة وما استنبط منهما ، وكان لا يعنى بنشر غير ذلك وكل هذه الرسائل لا تعد تأليفاً لمالك فى الفقه يستقى منه مذهبه ، كما لا تعد تدويناً للأحاديث التى صحت عنده .

---

(١) عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقى – تهذيب التهذيب ٥ / ١٥٩ .

(٢) الإمام مالك حياته وآراءه وفقهه للدكتور محمود عبد المتجلى ٢ / ١٠١ – ١٠٢ .

(٣) الإمام مالك للدكتور محمود عبد المتجلى ٢ / ١٠٢ – ١٠٣ .

(٤) خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن سلمة المخزومى المكى توفى سنة ٢١٢هـ تهذيب التهذيب ٢ / ٥٢٢ .

(٥) لابن وهب . دون فيه ما سمعه من إمامه فى مجالسه انظر مناهج المحدثين لفضيلة الأستاذ الدكتور أحمد محرم ١ / ٢٦٣ .

(٦) ويبدو أنه ثمرة اتصاله بالإمام جعفر الصادق وأخذه عنه فقد عرف الإمام الصادق بالبراعة فى هذا الصدد ومع ذلك شكك الأستاذ أبو زهرة فى صحة نسبته إليه ورأى أن ما عنى به مالك وصرف إليه همته من الاشتغال بالكتاب والسنة ينافى الاشتغال بالنظر فى النجوم والفلك أو على الأقل لم يكن فى دائرة اهتمامه (انظر المصدر السابق) .

الموطأ

أهميته بين كتب الحديث :

يعد الموطأ أول مؤلف ثابت النسبة إلى مؤلفه دون أدنى شك ذاع وانتشر الإسلام وتناقلته الأجيال جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا .

والموطأ يعد الأول فى التأليف فى الفقه والحديث معا كما يقول الثقات وأهل الخبرة فى الحديث والفقه .

قال شيخ الإسلام فى مقدمة فتح البارى شرح صحيح البخارى أعلم – علمنى الله وإياك أن آثار النبى ﷺ لم تكن فى عصر الصحابة وكبار التابعين مروية فى الجوامع ولا مرتبة لأمرين :

أحدهما : أنهم كانوا فى ابتداء الحال نهوا عن ذلك – كما ثبت فى صحيح مسلم خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن .

ثانيهما : سعة حفظهم وسيلان أذهانهم ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة[1] .

والموطأ من أشهر المصنفات الحديثية ورتبته تجئ بعد رتبة الصحيحين عند أكثر المحدثين ومنهم من يرى أنه بالتقديم عليهما قمين . قال الإمام الشافعى ما ظهر على الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك نقله السيوطى ونقل ابن العربى المالكى أبى بكر محمد بن عبد الله الأشبيلى صاحب عارضة الأحوذى وأحكام القرآن والمتوفى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة نقل عنه السيوطى قوله : الموطأ هو الأصل واللباب وكتاب البخارى هو الأصل الثانى فى هذا الباب وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذى . ثم قال السيوطى : " وقال الحافظ مغلطاى : أول من صنف الصحيح مالك ، وقال الحافظ ابن حجر : كتاب مالك صحيح عندى وعند من يقلده على ما اقتضاه نظره من الاحتجاج بالمرسل والمنقطع وغيرهما ، قلت : ما فيه من المراسيل فإنها مع كونها حجة عنده بلا شرط وعند من وافقه من الأئمة على الاحتجاج بالمرسل فهى أيضا حجة عندنا لأن المرسل عندنا حجة إذا عضد وما من مرسل فى الموطأ إلا وله عاضداً وعواضد . فالصواب إطلاق أن الموطأ صحيح لا يستثنى منه شيئ .

وكان مالك لا يقول بلغنى إلا ما كان صحيحاً ولا يحدث إلا عن ثقات الناس فالصواب أن إطلاق أن الموطأ صحيح لا يستثنى منه شيئ وقد صنف ابن عبد البر فى وصل ما فى الموطأ من المرسل والمنقطع والمفصل قال : وجميع ما فيه من قوله بلغنى ومن قوله عن الثقة عنده ممن له بسنده أحد وستون حديثاً كلها مسنده من غير طريق مالك إلا أربعة لا تعرف .

الأحاديث المنتقده وآراء العلماء حولها :

أحدها : إنى لا أنسى ولكن أنسى لأسن[1] .

---

[1] المقدمة لشيخ الإسلام الحافظ ابن حجر (ص ٨) .

والثانى : أن رسول الله ﷺ أرى أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل الذى بلغه غيرهم فى طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر خيرا من ألف شهر[٢] .

والثالث : إن معاذ بن جبل قال : " آخر ما أوصانى به رسول الله ﷺ حين وضعت رجلى فى الغرز أن قال : " أحسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل "[٣] .

والرابع : إذا نشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة "[٤] .

آراء العلماء حول الأحاديث الأربعة

قال بعض العلماء إن البخارى إذا وجد حديثاً يؤثر عن مالك لا يكاد يعدل به إلى غيره حتى إنه يروى فى الصحيح عن عبد الله بن محمد بن أسماء عن عمه جويرة عن مالك[٥] .

وقد دافع عن معانى هذه الأحاديث الأربعة بأن معانى هذه الأحاديث صحيحة واستشهدوا لها بما فى الكتب السنة[٦] .

لكن الشيخ محمد حبيب الله بن مايابا الشنقيطى فى كتابه " دليل السالك إلى موطأ مالك " وقد رأيت بعض متقنى السنن

وقد رأيت بعض متقنى السنن ... من حاذ فى كل العلوم خير فن

عزا إلى نجل الصلاح أن وصل ... أربعة الأخبار فالكل إتصل

ثم قال قولى : بعض متقنى السنن هو الشيخ صالح (الفلانى) شهرة (العمرى) نسبة (المدنى) مهاجراً فى حواشية على شرح الشيخ زكريا الأنصارى على ألفية العراقى عند قوله ولا يرد موطأ فقد قال : بعد أن تعقب كلام الحافظ العراقى وتسليم الحافظ ابن حجر له بكلام متين ما نص المراد منه ، وما ذكره العراقى من أن من بلاغاته ما لا يعرف مردود بأن ابن عبد الله ذكر أن جميع بلاغاته ومراسيله ومنقطعاته كلها موصولة الطرق صحاح إلا أربعة أحاديث ، وقد وصل ابن الصلاح هذه الأربعة فى تأليف مستقل وهو عندى وعليه خطه .

ثم قال : " فظهر بهذا أنه لا فرق بين الموطأ والبخارى – وصح أن مالكاً أول من صنف فى الصحيح كما ذكره ابن عبد البر وابن العربى القاضى والسيوطى ومغلطاى وغيرهم فافيهم "[٧] .

---

(١) أخرجه مالك فى كتاب السهو باب العمل فى السهو ١ / ١٠٤ حديث (رقم ٢٢) .

(٢) وأخرجه فى الاعتكاف (حديث ١٥) ١ / ٢٦٣ .

(٣) وأخرجه فى كتاب حسن الخلق باب ما جاء فى حسن الخلق (حديث ١) ٢ / ٦٨٨ .

(٤) أخرجه فى كتاب الاستسقاء باب الاستمطار بالنجوم (حديث٥) ١ / ١٧١ .

(٥) تنوير الحوالك ج١ / ص ٦ – ٩ بتصرف راجع مناهج المحدثين أ . د / أحمد محرم ١ / ٢٦٥ – ٢٦٦ .

(٦) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص ٤٣٣ .

(٧) الإمام مالك للدكتور / محمود عبد المتجلى ٢ / ٢٠ – ٢١ .

سبب تسميته بالموطأ :

قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الكنانى الأصفهانى : قلت لأبى حازم الرازى : موطأ مالك لم سمى الموطأ ؟ فقال : شيئ صنعه وواطأه للناس حتى قيل موطأ مالك كما قيل جامع سفيان .

وقال مالك : عرضت كتابى هذا على نحو سبعين فقيها من فقهاء المدينة فكلهم واطأنى عليه فسميته " الموطأ " .

وقال ابن فهر : " لم يسبق مالكاً أحد إلى هذه التسمية فإن من ألف فى زمانه بعضهم سمى بالجامع ، وبعضهم سمى بالمصنف ، وبعضهم بالمؤلف ولفظة " الموطأ " بمعنى الممهد المنقح "[٢] .

وقد جاء المهدى حاجاً فسمعه منه وأمر له بخمسة آلاف دينار ولتلاميذه بألف ثم رحل إليه الرشيد فى إحدى حججه مع أولاده وسمعه ورغب أن يعلقه فى الكعبة ويحمل الناس على العمل بما جاء به فأجابه – رحمه الله – " لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا فى الفروع وتفرقوا فى البلدان وكل مصيب " فعدل الرشيد عن ذلك ، ولقد لهجت الألسنة بالثناء على الموطأ شعراً ونثراً فمما قيل فيه شعراً ؛

أقول لمن يروى الحديث ويكتب ... ويسلك سبيل الفقه فيه ويطلب

وقال القاضى عياض رحمه الله تعالى :

إذا ذكرت كتب العلوم فحيهل ... بكتب الموطأ من تصانيف مالك
أصح أحاديثاً واثبت حجة ... وأوضحها فى الفقه نهجا لسالك
عليه مضى الإجماع فى كل أمة ... على رغم خشيوم الحسود المماحك
فمنه فخذ علم الديانة خالصا ... ومنه استفد شرع النبى المبارك
وشد به كف الضنانة تهتدى ... فمن حاد عنه هالك فى الهوالك[١]

منهج الإمام مالك فى الموطأ :

كان منهج الإمام مالك رضى الله عنه فى الكتاب يتفق مع الفرض الذى قصده من جمعه والباعث الذى بعثه إليه . ولم يكن المقصود أن يدون طائفة من الأحاديث التى صحت عنده كما هو الشأن فى صحاح السنة التى دونت من بعده بل كان الهدف جمع الفقه المدنى والأساسى الذى قام عليه فهو كتاب حديث وسنة وفقه . ولذا نجده يذكر الأحاديث فى الموضوع الفقهى الذى اجتهد فيه ثم عمل أهل المدينة المجمع عليه ، ثم رأى من التقى بهم من التابعين وأهل الفقه والرأى المشهود بالمدينة فإن لم يكن شيئ من ذلك فى المسألة التى بين يديه اجتهد رأيه على ضوء ما يعلم من الأحاديث والفتاوى والأقضية ودون رأيه فى ذلك ولهذا فالكتاب لا يبين فقط المجموعة التى

---

(١) تنوير الحوالك ج١ / ص٧ .
(٢) الديباج المذهب جـ١ / ص ١٢١ – ١٢٣ .

صحت عنده من الأحاديث ، ورأيت أن ينشرها بين الناس ويدونها فى كتاب ، بل يبين ذلك ، ويذكر إلى جانبه أن الصحابة والتابعين الذين اختاروا آرائهم والأمور التى رأى تدونها فى ذلك الكتاب كان انتقاء مالك للأحاديث انتقاء المتعرف لأحوال رواتها الفاحص لهم وإذا كان أبو حنيفة قد اشتهر بفهمه لفقه الحديث وتفسيره فقهياً يستنبط منه العلل التى يبنى عليها الأقيسة فمالك رضى الله عنه قد اشتهر بنقد الرجال نقد الخبير العالم ووزن الحديث بكتاب الله تعالى والمشهور من السنة وما رآه مجمعا عليه من أهل المدينة .

ولعل مالك أول من عنى عناية شديدة بدراسة رجال الحديث وإذا كان أخص ما يعنى به المحدثون دراسة رجال الحديث وعدالتهم وضبطهم وفهمهم فمالك قد فتح بمسلكه لهم عين الطريق فسلكوه .

ولقد آثرت عنه كلمات فى شروط الرجال الذين يستحقون أن يروى عنهم ، ومن كان يرفض روايته وهذه الكلمات تعد بيانا لشروط الرواة المقبولة روايتهم عنده ومن ذلك قوله . لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ ممن سواهم :

" لا يؤخذ من سفيه ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو على بدعة ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يتحمل ولا ما يحدث به " .

فما لك إذن لا يكتفى بالعدالة والضبط به لابد أن يكون الراوى عنده ممن يزن ما ينقل إليه ويتعرف حاله وحال من ينقل عنه ، ولذا كان يرفض أحاديث رجال كثير من أهل الصلاح يعرف لهم فضلهم وتقواهم وصلاحهم ، وكان يقول : أدركت بهذه البلدة أقواماً لو استقى بهم المطر لسقوا قد سمعوا العلم والحديث كثيراً ، ما حدثت عن احد منهم شيئاً ، لأنهم كانوا الزموا أنفسهم خوف الله والشأن من الحديث والفتيا يحتاج إلى رجل معه تقى وورع وصيانة وإتقان وعلم وفهم .

وكان يقول إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله ﷺ عند هذا الأساطين ، وأشار إلى أعمدة المسجد إلنبوى ، فما أخذت عنهم شيئاً ، وأن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أمينا إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن ، وقال كنت أرى الرجل من أهل المدينة وعنده الحديث أحب أن أخذه عنه فلا أراه موضعاً ، فأتركه حتى يموت فيفوتنى[1] .

وقد رأيت أيوب السختانى بمكة حجتين فما كتبت عنه ، ورأيته فى الثالثة قاعداً فى فناء زمزم فكان إذا ذكر عنده النبى ﷺ يبكى حتى أرحمه ، فلما رأيت ذلك منه كتبت عنه .

وكان لحرصه على أن يكون رواته ثقات بالشروط التى اشترطها يرفض رواة بلد بأسره قيل له : لم لا تحدث عن أهل العراق ؟ قال : لأنى رأيتهم إذا جاءونا يأخذون الحديث من غير ثقة ،

(١) الديباج ص ٢٤ .

فقلت : إنهم كذلك فى بلادهم، وهذا يدل على مبل الجهد الذى بذله الإمام فى جمع هذا الكتاب وتحريه فى الرواية .

عدد أحاديث الموطأ روايته :

أحاديث الموطأ تختلف عددها بحسب اختلاف رواته وأقربها قول من قال : جملة ما لى الموطأ من أحاديث النبى ﷺ وقضايا الصحابة وفتاوى التابعين " ألف وسبعمائة وعشرون حديثاً " المسند منها " ستمائة حديث " والمرسل " مائتان واثنان وعشرون " والموقوف على الصحابة " ستمائة وثلاثة عشر " ومن أقوال التابعين " مائتان وخمسة وثمانون " قال الحافظ صلاح الدين العلائى : روى الموطأ عن مالك جماعات كثيرة وبين رواياتهم اختلاف من تقديم وتأخير زيادة ونقص وأكبرها رواية القعنبى ، ومن أكبرها وأكثرها زيادات رواية أبى مصعب ، فقد قال ابن حزم الأندلسى : فى رواية أبى مصعب زيادة على سائر (الموطآت) نحو مائة حديث ، وقال السيوطى : (فى رواية محمد بن الحسن – صاحب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه أحاديث يسيرة زيادة على سائر الموطآت منها حديث " إنما الأعمال بالنيات " ، وبذلك يتبين صحة قول من غزا رواية هذا الحديث إلى الموطا ، ووهم من خطأه فى ذلك) ، وقصده الرد على ابن حجر العسقلانى الذى نفى أن يكون هذا الحديث فى الموطأ . هذا وقد كان مالك يحدث بالحديث أحياناً ثم بيدوا له فيه عيب ويأخذ فى فقهه بغيره ، فيرون الحديث بغير رأيه .

وقد قيل فى ذلك : رأيت يا أبا عبد الله أحاديث تحدث بها ليس عليها رأيك لأى شئ أقررتها ؟ فقال : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما فعلت ولكن انتشرت عند الناس ، فإن سألنى أحد لم أخذت بها وهى عند غيرى : اتخذت غرضاً[1] .

عدد كتبه وأبوابه :

قام الأستاذ الكبير محمد فؤاد عبد الباقى رحمه الله تعالى بتحقيق كتاب الموطأ فأتقن وأجاد وأحسن وأبلغ وبلغ عدد كتبه " واحدا وستون كتاباً " تشتمل على " سبعمائة وثلاثة باباً " وقد رقم الكتب مجمعه ثم أفرد كل كتاب بترقيم يخصه فى الأبواب والأحاديث .

ومن هنا تبين لنا تجاوز الذين قدموا الموطأ على الصحيحين واعتبروه الباب واعتبروا صحيح البخارى الأصل الثانى فى هذا الباب كابن العربى وغيره ، وأما اعتبار الشافعى الموطأ شئ بعد كتاب الله فمرد ذلك وتأويله إلى أنه قاله أن تشرق شمساً الصحيحين ولو قدر له أن يعيش إلى زمنهما وان يقف عليهما لما قدم عليهما شيئاً .

وقدم ابن الأثير المتوفى سنة ست وستمائة فى كتابه جامع الأصول من أحاديث الرسل الموطأ كسادس الكتب الستة ورأى أنه أحق من سنن ابن ماجة بذلك ولم يوافقه أكثر المحدثين على ما ذهب إليه ، وقد مال ابن الصلاح وغيره على جعل الموطأ فى الدرجة التى تلى الصحيحين .

---

(١) مالك للدكتور محمود عبد المتجلى ١١٦/٢ .

وأن ما فيه من الأحاديث الموصولة المرفوعة إلى رسول الله ﷺ صحاح كلها ، وهى فى الصحة كأحاديث الصحيحين .

وأما ما فيه من المراسيل والبلاغات وغيرها فيعتبر فيها ما يعتبر فى أمثالها مما تحويه الكتب الأخرى ، وإنما لم يعده أكثر العلماء فى الكتب الصحاح لكثرة ما فيه من المراسيل والبلاغات والمقتطعات وكثرة الآراء الفقهية فيه لمالك وغيره .

روايات الموطأ وأشهر رواته :

هكذا يتبين لنا أن الموطأ قد روى بروايات مختلفة تتفاوت فى ترتيب الأبواب وعدد الأحاديث ، وقد ذكر القاضى عياض أن الذى اشتهر من نسخ الموطأ نحو (عشرين نسخة) وذكر بعضهم أنها (ثلاثون) – وقال أبو القاسم بن محمد بن حسين الشافعى : الموطآت عن مالك (أحد عشر) معناها متقارب والمستعمل منها (أربع) موطأ يحيى ، وموطأ ابن بكير ، وموطأ أبى مصعب ، وموطأ ابن وهب ، ثم ضعف الاستعمال فى الآخرين ، وقال الشيخ عبد العزيز الدهلوى المتوفى سنة ١٣٩هـ فى كتاب (بستان العارفين) ، إن نسخ الموطأ التى توجد فى بلاد العرب فى هذه الأيام متعددة عد منها ست عشرة نسخة كل نسخة عن راو خاص "[1] .

ومن الموطآت المشهورة المشروحة التى تدور فى أيدى الناس الآن موطأ يحيى بن يحيى الليثى ، وموطأ محمد بن الحسن الشيبانى ، ولا يعترض على الموطأ بما بين رواياته من تفاوت بالزيادة أو النقصان أو بالتقديم ، والتأخير فى الأبواب ، لأن الإمام مالكاً رضى الله عنه ظل يرتب فيه ويحذف منه إلى قرب وفاته ، وأنه كان يشتمل على عشرة آلاف حديث فما زالت معالجته إلى أن آل حاله إلى ما هو عليه .

وليس بلازم أن يتحد الناس فى زمان سماعه فتتحد الروايات عدداً وتنظيماً ، وإنما الذى حدث تتابع السماع على الإمام ، فروى كل ما سمع فى زمانه فتفاوتت النسخ لذلك ولا يضير الموطأ هذا التفاوت ، فالمعول صحة السماع وانضباط النقل على أن الأئمة الشراح تعرضوا لبيان تلك الزيادة فى بعض النسخ عن بعض كما فعل ابن عبد البر فى آخر كتابه التقصى ، حيث أشار إلى زيادات " يحيى " ورتبها على حروف المعجم ، ونتعرف الآن على أهم وأشهر رواة الموطأ ونكتفى بالتعرف على بعض منها :

أولهم : محمد بن الحسن الشيبانى : صاحب أبى حنيفة ، كنيته أبو عبد الله الدمشقى ولد بواسط سنة ثنين ثلاثين ومائة ونشأ بالكوفة فسمع من أبى حنيفة ، ومسعر ، والثورى ، وكتب عن مالك والأوزاعى ، وأبى يوسف ، وسكن بغداد وحدث بها .

وأخذ عنه الشافعى حين قدم بغداد سنة أربع وثمانين ومائة وناظره وأثنى عليه ، وقد تولى ابن الحسن قضاء الرقة فى عهد الرشيد ثم عزل عنها ، وقد عرف بالزهد ، والورع ، والعزوف عن

[1] أعلام المحدثين ص ٥٦ – ٥٧ .

الدنيا ، والانصراف إلى العلم ، وقد ذكر أنه ورث عن أبيه ثلاثين ألفاً انفق نصفها على النحو والصرف والشعر وانفق النصف الثانى على الحديث .

قال عنه الشافعى : ما رأيت حبراً سمينا مثله ولا رأيت أخف روحاً منه ولا أفصح منه ، كنت إذا سمعته يقرأ القرآن كأنما يترل القرآن بلغته ، وقال – أيضاً – : ما رأيت أعقل منه كان يملأ القلب العين .

قال الطحاوى : كان الشافعى قد طلب منه كتاب السير فلم يجبه على الإعارة وكتب إليه :

قل للذى لم تر عيناى مثله ... حتى كأن من رآه من قبله

العلم ينهى أهله أن يمنعوه أهل ... لعله يبذ له لأهله لعله

قال فوجه به إليه فى الحال هدية لا عارية .

وقيل لأحمد بن حنبل : هذه المسائل من أين لك : أقال : من كتب محمد بن الحسن رحمه الله[1] .

ولعل فى أخذ محمد بن الحسن عن الإمام مالك واشتهار روايته للموطأ وثناء الشافعى ، وأحمد عليه وهما من هما فى الانتصار للسنة والتعصب لأهلها ونسخته مطبوعة بالهند وإيران ولها شهرة هناك وفى الحرمين ، ومما انفردت به نسخته حديث " إنما الأعمال بالنيات " .

ونسخة محمد تزيد عن نسخة يحيى بن يحيى بن وسلاس الليثى المتداولة فى أيدى الناس أحاديث كثيرة لكنه شحنها بآثار ضعيفة من غير طريق مالك ، وكان يحتج بها لفقه أبى حنيفة كما ذكر فيها ما وافق فقه ، وكما زادت لنسخته بأحاديث فهى خالية من عدة أحاديث ثابتة فى سائر الروايات كما قال الزرقانى فى أول شرح الموطأ ، وقد توفى محمد بن الحسن فى سنة تسع وثمانين ومائة .

ثانيهما : يحيى بن يحيى الليثى الأندلسى : كنيته أبو محمد واسمه يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس : أصله من البربر من قبيلة يقال لها مصموده ، وتولى بنى ليس فنسب إليهم .

أشتغل بالعلم وسمع على شيوخ قرطبة ، وكان من سماعاته بها "الموطا" ثم طلب سماعه عالياً فرحل إلى المشرق ، وهو فى الثامنة والعشرين من عمره فلقى الإمام مالك ، وسمع الموطأ منه كاملاً إلا بعض أبواب فى كتاب الاعتكاف شك فى سماعه إياها منه فرواها عن غيره ، وسمع فى مكة من سفيان بن عينية ، وفى مصر من الليث بن سعد وابن وهب وتفقه بالمدنيين والمصريين من أكابر أصحاب مالك بعد انتفاعه بمالك وملازمته له ، وكان مالك يسميه عاقل الأندلس .

قال ابن خلكان " واشهر روايات الموطأ وأحسنها رواية يحيى المذكور ، وكان مع إمامته ودينه معظما عند الأمراء مكينا عفيفاً عن الولايات متنزها جلت رتبته عن القضاء فكان أعلى قدراً من القضاة عند ولاة الأمر هناك لزهده فى القضاء وامتناعه منه ، ثم نقل عن ابن بشكوال قوله :

(١) البداية والنهاية بن كثير جـ١٠/ ، ص ٢٠٢ – ٢٠٣ .

كان يحيى بن يحيى مجاب الدعوة ، وكان قد أخذ فى نفسه وهيئته ومقعده هيئة مالك[1] ، توفى سنة أربع وثلاثين ومائتين .

ثالثا : ابن وهب[2] : وهو أبو محمد عبد الله بن سلمه بن وهب النهرى المصرى ، وهو بربرى أصلاً ، ولازم مالكاً نحو عشرين سنة ونشر فقهه فى مصر ، ولد فى ذى العقدة سنة ١٢٥هـ ، وقد تعلم من مالك الفقه والاجتهاد ، وكان مالك يحبه يعظمه ، وكان يلقبه بالفقيه فيما يكتب إليه ، وكان أحد من نشروا مذهبه فى مصر وبلاد المغرب ، وقد عرض عليه القضاء فامتنع .

وقد تفردت نسخته بهذا الحديث ، وهو أولها : مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ..... الخ الحديث ، ولا يوجد هذا الحديث فى الموطأت الأخرى إلا موطأ ابن القاسم .

قال الشيخ الشنقيطى : وتوجد الآن نسخته بمكتبة فيض الله شيخ الإسلام بالآستانة العلية كما أخبرنى به بعض علماء الترك[3] ، توفى ابن وهب سنة سبع وتسعين بعد المائة .

تلك هى أهم النسخ لمرويات الموطأ وأشهرها رواية عن مالك والبالغ عددها أحد عشر ومعناها متقارب والمستقبل منها أربعة وهى كما ذكرنا : موطأ يحيى ، وموطأ ابن بكير ، وموطأ أبى مصعب ، وموطأ ابن وهب ، ثم ضعف الاستعمال فى الأخيرين ، ويأتى الحديث بمشيئة الله عن أهم وأشهر شروح الموطأ .

أهم الكتب المؤلفة حول الموطأ وأشهر شروحه :

قال السيوطى فيما نقله عن القاضى عياض " لم يعتن بكتب من كتب الحديث والعلم اعتناء الناس بالموطأ فمن شرحه ابن عبد العزيز فى التمهيد والاستذكار ، وأبو الوليد بن الصفار وسماه الموعب "[1] .

وعدد السيوطى قدراً لا بأس به من أسما شروحه وشراحه وللسيوطى نفسه عدة كتب على الموطأ بعضها فى رجاله بعضها الآخر فى شرحه ، وفى وصل ما انقطع منه .

ويمكننا أن نوع المصنفات على الموطأ إلى :

١ – مختصراته : وهى كثيرة من أشهرها مختصر الإمام أبى سليمان حمد بن أحمد بن محمد ابن خطاب البستى الخطابى المتوفى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة ، وهو صاحب " معالم السنن " فى شرح سنن أبى داود و " أعلام السنن " فى شرح البخارى و " غريب الحديث " وغيرها .

---

(١) وفيات الأعيان جـ٦/ ، ص ١٤٣ – ١٤٦ ، الديباج المذهب ص ٣٥٢ – ٢٥٣ ، تنوير الحوالك ج ١/ ، ص١٢ .

(٢) وهو أبو عبد الله بن سلمة النهرى المصرى ولد فى ذى العقدة سنة خمس وعشرين بعد المائة ، وأخذ عن أربعمائة شيخ منهم مالك والليث والسفيانان وغيرهم ، مقدمة الموطأ للشيخ محمد فؤاد عبد الباقى ص ١٢ .

(٣) الإمام مالك للدكتور / محمود عبد المتجلى ١٣٦/٢ – ١٣٧ .

(١) تنوير الحوالك جـ١/ ص ١٢ .

وممن اختصره – أيضاً – : أبو الوليد سليمان بن خلف الباجى المتوفى سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، وممن اختصره – أيضاً – ابن رشيق القيروانى المتوفى سنة ست وخمسين وأربعمائة .

٢ – **شروحه** : انبرى لشرح الموطأ كثيرون قديماً وحديثاً ، وكان من أبرزهم وأشهرهم عناية :

١ – ابن عبد البر : وهو الإمام شيخ الإسلام حافظ المغرب أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر ابن عاصم النمرى القرطبى المولود سنة ثمانين وستين وثلاثمائة ، وطلب العالم فى الصغر ، وكان لابن عبد البر اليد الطولى على الثقافة الإسلامية نظراً لما تركه من المصنفات العلمية النافعة ، والتى كان من أبرزها " كتاب الاستيعاب فى معرفة الأصحاب " ومن أشهر مصنفات ابن عبد البر على الموطأ " كتاب التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد " قال عنه ابن حزم " التمهيد لصاحبنا أبى عمر لا أعلم فى الكلام على فقه الحديث مثله أصل فكيف أحسن منه " .

وقد كان العلماء قبل ابن عبد البر ، وفى عصره يشرحون الموطأ فيعتنون بالأحاديث المرفوعة فقط دون أن يعطوا للأحاديث المرسلة المنقطعة أيما اهتمام وهذا ما دعا ابن عبد البر ليؤلف شرحه هذا فقد سار فيه على الوجه التالى :

أ – وضع للكتاب مقدمة احتوت على جمل من العلم مهمة فذكر جملة من الأخبار الدالة على البحث على صحة النقل وموضع المتصل والمرسل والحديث عن الإمام مالك والموطأ .

ب – رتب الموطأ كترتيب المعاجم ، فرتبه على شيوخ مالك ، ورتب الشيوخ على حروف المعجم مقدماً من مرويات الشيخ الأحاديث المتصلة ثم ما اختلف فى اتصاله ثم المنقطع ثم المرسل ثم يأتى إلى الأحاديث المنقطعة فيبين اتصالها إما من موطأ أخر ، وإما من طريق غير طريق مالك وكذا المرسلة .

جـ – اقتصر فى دارسته على الأحاديث المضافة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أما الآراء فلم يقترض لها فى كتابه هذا لأنه افرد لها كتاب أخر .

د – أثناء شرحه يتكلم عن الرواة ويبين حالهم من التعديل والتخريج ويتكلم على آراء العلماء فى المسائل فى ضوء مذهب مالك مع ميل بين على مذهب الشافعى رضى الله عنهم .

ومن كتب ابن عبد البر على الموطأ " الاستذكار فى شرح مذاهب علما الأمصار ممارسة مالك فى موطئه من الرأى والآثار " والمادة العلمية التى فى هذا الكتاب هى التى فى التمهيد لكن الاختلاف فى الترتيب والتنسيق فهذا الكتاب هو شرح للموطأ على وضعه الطبيعى .

٢ – الإمام الباجى : وهو الأمام أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الباجى ، المتوفى سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، للباجى على الموطأ ثلاث شروح " الاستيفاء " و " المنتقى " ، وهو مطبوع فى سبع مجلدات ثم اختصره فى كتاب سماه " الإيماء " .

وشرحه القاضى محمد بن سليمان بن خليفة ، وأبو بكر بن سابت الصقلى ، وسماه " المالك ، وابن أبى صفرة ، والقاضى أبو عبد الله أحمد بن الحاج ، والعبدرى صاحب المدخل ، وأبو الوليد بن العواد ، وأبو محمد بن السميد البطليوسى وسماه (المقتبس) وأبو القاسم بن الحذاء الكاتب ، وأبو الحسن الاشبيلى وابن شراحيل ، وأبو عمر الطلمنكى ، والقاضى أبو بكر بن

العربى وسماه : (القبس) ، وعاصم النحوى ويحيى بن زيد وسماه (المستقصية) ، ومحمد بن أبى زمنين وسماه (المعرب) .

وممن شرح الموطأ من علماء الهند الإمام الكاندهوى محمد بن زكريا محمد يحيى الحنفى السهارتفورى ، المولود سنة ألف وثلاثمائة وخمس عشرة ، وقد سمى شرحه " أوجز المسالك شرح موطأ مالك " ، والكتاب مطبوع بالهند فى خمس أجزاء .

وقد تعددت المؤلفات على الموطأ وتنوعت فى أغراض مختلفة ما بين كتبه ، وأبوابه شروحه ومختصراته ، وكل ما يتعلق بالموطأ من بيان أصحيته وتقدمه على غيره وروائه وعدد أحاديثه إلى غير ذلك .

ومن كل ما سبق يتبين لكل من طلب الحق مدى عناية الأمة بحديث نبيها ﷺ ، فهنا هو ذا الموطأ على صغر حجمه بالنسبة إلى غيره من أمهات الكتب الحديثية يحظى بهذا الاهتمام فكيف بغيره .

٣ – السيوطى : وهو جلال الدين عبد الرحمن بن بكر محمد الخضيرى السيوطى المولود سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، والمعروف بنهمة التصنيف ، وقد وصلت كتبه على خمسمائة مصنف ، وقال عن نفسه إنه حفظ مائتى ألف حديث ولو وجد أكثر لحفظ ، وقد كان من مؤلفاته على الموطأ " تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك " .

بدأ بمقدمة مشتملة على سبع فوائد تكلم فيها عن الإمام مالك وفضله ثم عن فضل الموطأ ثم عن عدد أحاديثه واختلاف رواياته وروائه عن مالك ، ثم سرد العديد من شراحه وشروحه ، وتكلم فى شرحه على أسانيد الأحاديث واختلاف الرواة ، رفع الموقوف وإسناد المرسل ، ووصل المنقطع ، وعنى ببيان الغريب من ألفاظ الحديث ولم يعول على ذكر المذاهب ، والكتاب فى غاية الاختصار ، وهو مطبوع فى ثلاثة أجزاء صغار ، وألحق بنفس الطبعة كتاب آخر للسيوطى على الموطأ سماه " إسعاف المبطأ برجال الموطأ " ، وللسيوطى – أيضاً – كتاب " كشف المفطأ عن الموطأ " وله كتاب " تجريد أحاديث الموطأ" توفى سنة إحدى عشر وتسعمائة .

٤– الزرقانى : هو محمد بن عبد الباقى بن يوسف بن أحمد بن علوان الزرقانى المالكى أبو عبد الله محدث فقيه أصولى ، ولد بالقاهرة سنة خمس وخمسين وألف ، وتوفى اثنتين وعشرين ومائه بعد الألف ، وشرحه على الموطأ سماه " أبهج المسالك بشرح موطأ الإمام مالك " .

وهو شرح وسط بين الطول والقصر وتعرض فيه لشرح متون الأحاديث من جهة اللغة وأفضى فى شرح المذاهب الفقهية ولم يعن بالرجال ولا بتراجم الأبواب ، ونال حظاً من الشهرة .

وفاة الإمام :

فقد امتد بالإمام الأجل وبارك الله له فى العمر فقارب التسعين عند وفاته وكثر تلاميذه وانتشر فقهه وفاضت الأخبار بذكره وتحدث الناس بعلمه – ولم يلازم مالك المسجد فى درسه طول حياته ، فقد انتقل درسه إلى بيته عندما مرض بسلس البول وانتقل بسبب ذلك درسه من المسجد إلى بيته .

ثم انقطع عن الخروج إلى الناس وإن لم ينقطع عن العمل والحديث والدرس والإفتاء ثم ترك ذلك كله فلم يكن يشهد الصلوات فى المسجد ولا الجمعة ولا يأتى أحد يعرفه واحتمل الناس ذلك منه لضرورته حتى مات وكان ربما سئل عن ذلك فيقول : " ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره " ، والظاهر أن تغير حاله كان تابعاً لتغير حال المرض وما يعترى الجسد منه ومن تقدم السن فلما اشتد المرض وتقدمت السنون انقطع إلى بيته ثم مرض يوم الأحد . فأقام مريضاً اثنين وعشرين يوماً ثم وافته المنية يوم الأحد لعشر خلون من ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة عن عمره السعيد وأقام مفتيا بالمدينة أكثر من ستين سنة .

وكان قد أوصى أن يكفن فى ثياب بيض وأن يصلى عليه بموضع الجنائز وغسله ابن كنانة وسعيد بن داود وكان كاتبه حبيب وابنه يحيى ابن مالك يصبان الماء وصلى عليه عبد الله بن محمد بن إبراهيم الهاشمى أمير المدينة وحضر جنازته ماشياً وكان أحد من حمل نعشه . ونزل قبره جماعة . وترك من الأولاد يحيى ومحمد وحمادة وأم أبيها . فأما يحيى وأم أبيها فلم يوصى بهما لأحد كانا بالغين مالكين لأنفسهما .

وأما محمد وحمادة فوصى بهما إلى إبراهيم بن حبيب رجل من أهل المدينة وبلغت تركته ثلاث آلاف وثلاثمائة دينار .

وحج هارون الرشيد عام موت مالك فوصل ابنه يحيى بخمسمائة دينار وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن الإمام محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنه قال . قال لى عمى : ونحن بمكة : رأيت فى هذه الليلة عجبا . فقلت له : وما هو ؟ قال : رأيت كأن قائلاً يقول : مات الليلة أعلم أهل الأرض قال الشافعى : فحسبنا فإذا هو يوم مالك بن أنس . .

وقال القاضى عياض فى المدارك : رأى عمر بن سعد الأنصارى ليله مات مالك قائلاً يقول :

لقد أصبح الإسلام زعزع ركنه ... غداة ثوى الهادى الذى ملحد القبر

إمام الهدى لازال للعلم صائنا ... عليه سلام الله فى أخر الدهر

قال : فانتبهت فكتبت البيتين على ضوء السراج وإذا الصارخة على مالك وأخرج الخطيب عن بكر بن سليم الصراف قال : دخلنا على مالك فى العشية التى قبض فيها فقلنا : يا أبا عبد الله ، كيف تجدك ؟ قال : ما أدرى ما أقول لكم إلا أنكم ستعاينون غدا من عفو الله ما لم يكن لكم فى حساب .

قال : ثم برحنا حتى أغمضناه .

وأخرج أبو نعيم عن القواريرى قال : كنا عند حماد بن زيد وجاءه نعى مالك فقال : رحمه الله كان من الدين بمكان .

وأخرج عن القعبى قال : أتيت سفيان بن عيينه فرأيته حزيناً فقيل بلغه موت مالك ثم قال سفيان : ما ترك على الأرض مثله .

وأخرج ابن عبد البر عن يونس بن عبد الأعلى قال : سمعت بشير بن بكر قال : رأيت الأوزاعى فى النوم مع جماعة من العلماء فى الجنة فقلت : أين مالك بن أنس فقيل : رفع ، فقلت : بماذا قال : بصدقه ومما رثته به امرأة :

بكيت بدمع وأكف فقد مالك ... ففى فقده ضاقت على المسالك
مالى لا أبكى عليه وقد بكت ... عليه الثريا والنجوم والشوابك
حلفت بما أهدت قريش وحللت ... صبيحت عشر حين تفضى المناسك
لنعم وعاء الفقه والعلم مالك ... إذا عد مفقوداً من الناس مالك

وأختم كلامى بما كان يختم به المصطفى ﷺ " اللهم أقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا وأجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا[1] .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى صحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين وآخر دعوانا إن الحمد لله رب العالمين

د / جمال حسوب بهلول

[1] المستدرك للحاكم ١ / ٥٢٨ وقد صح الحديث ووافقه عليه الذهبى وقد أخرجه الترمذى فى كتاب الدعوات بنحوه ٥ / ٤٩ .